مؤسسة السادة للفكر والثقافة
www.sadah.net

هداية الطريق

من سيرة أبي بكر الصديق

فضيلة الشيخ

محمد السيد حسن محمد

دار مشكاة
للطبع والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: هداية الطريق من سيرة أبي بكر الصديق
جمع وترتيب: الشيخ: محمد السيد حسن محمد
إشراف: مؤسسة السادة
التصنيف: تاريخ إسلامي
تنسيق: شركة دوام
مراجعة: بمعرفة المؤلف
تصميم غلاف: شركة دوام
رقم الإيداع: ٢٥/٣١٣٩٩
ترقيم دولي: ٩٧٧-٦٣٣-٨٣٠٣-٦٦-٢

٣٤ شارع يحيي إبراهيم – محمد مظهر – الزمالك - القاهرة
ت/ ٠١١١٤٣٩٨٩٩٤ - ٠١٠١٤٤٤٦٤٨ - ٠١٠٠٢٢٦٩٥٤٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
المحتوى الأدبي مسؤولية الكاتب بالكامل

تمهيد وتقديم

وماذا يمكن قوله، ومن بعد قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا[١]؟

وماذا يمكن قوله ومن بعد قوله صلى الله عليه وسلم أيضا: إن من أَمَنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر[٢]؟

وإذ ماذا يمكن قوله أيضا، ومن بعد قوله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن عمر: خرج إلينا رسول الله ذات يوم فقال: رأيت كأني أعطيت المقاليد والموازين فأما المقاليد فهى المفاتيح فوضعت في كفة و وضعت أمتي في كفة فرجحت لهم ثم جيء بأبي بكر فرجح بهم ثم جيء بعمر فرجح بهم ثم جيء بعثمان فرجح ثم رفعت فقال له رجل: فأين نحن؟ قال أنتم حيث جعلتم أنفسكم[٣].

وماذا يمكن قوله، ومن بعد خبره صلى الله عليه وسلم أيضا: أن إيمان أبي بكر لو وزن بإيمان الأمة لرجح به[٤]؟

وهذه مقدمة أغنت، وهذا تمهيد سد مسد مصنف، يمكن تأليفه في هذا الرجل!

---

(١)صحيح مسلم: ٢٣٨٣
(٢)صحيح البخاري: ٣٩٠٤
(٣)تخريج كتاب السنة، الألباني: ١١٣٨، خلاصة حكم المحدث: صحيح.
(٤)

ولكن وجها آخر للمسألة، ولما كان من برهان لازم، وحين كان من دليل قاطع، ولما كان من بيان شاف كاف واف.

ولأن اختزال حياة أبي بكر، وفي كمثل هذه الأحاديث وحدها، وإذ ليس كافيا؛ ولأن له في موقعة قدما، وفي كل ساحة سبقا، فأغنى، وسد، ويكأنه أمة واحدة وحده.

وهذا الذي قد عناه بحثنا هذا؛ ترسما لأقدام كانت لأبي بكر سابقة ثابتة.

ويكأنك واجد وفي كل حقل له فيه فضله، ومن كل ساحة كانت له فيها سياحة!

وأحببت أن أشرف، ومن كمثل ما شرف به غيرى؛ إظهارا لبعض مناقبه، تاريخا يحتذى، ومن كماء الشذرات يكتبه القاصون، ويحكيه المؤرخون أيضا.

وإذ كيف لا، وقد دخل في عموم قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. قال أبو رافع: فحدثت عبد الله بن عمر فأنكره علي، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلما جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث، فحدثنيه كما حدثته ابن عمر. قال صالح: وقد تحدث بنحو ذلك عن أبي رافع[1]؟

وسأعالج شأني هذا في أربعة فصول:

([1])صحيح مسلم: ٥٠

الفصل الأول: من مولده إلى إسلامه.

الفصل الثاني من إسلامه إلى هجرته.

الفصل الثالث: من هجرته إلى وفاة النبي صلى الله عله وسلم.

الفصل الرابع: من خلافته إلى يوم وفاته.

الفصل الأول: من مولده إلى إسلامه

اسمه: تراوح اسم أبي بكر بين عبدالله، ومن بعد عبد الكعبة؛ تعبيدا لمولاه، وعتيقا من النار؛ على تسمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من جماله وحسنه، أو عتيقا لعدم ما يعاب به نسبه، وهذا أمر شريف، ووسام منيف، وتعدد الاسم من شرف المسمى.

فعن عائشة أم المؤمنين: أن أبا بكر، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنت عتيق الله من النار فيومئذ سمي عتيقا[1].

نسبه: هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم.

أمه: أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه.

موجز الأنباء: ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة، وفي الغار، وفي المشاهد كلها،

([1]) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٦٧٩

إلى أن مات، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج في الناس في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم، سنة تسع، واستقر خليفته في الأرض بعده، ولقبه المسلمون خليفة رسول الله.

صفاته الجسدية: كان أبيض حنيفا خفيف العارضين.

وعن عائشة أن أبا بكر كان يصبغ بالحناء والكتم[1].

من صفاته: وكان أبو بكر رجلا مألوفا لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا، ذا خلق، ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه[2].

ولماذا الصديق؟

ولأنه صدق هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم في كل خبره، ومن سائر ما أنبأ به. وساما على صدره، وتاجا توج به، وما أحوج أن يقتدى صديق بصديقه، أو صاحب بصاحبه، ألفة ومحبة وصدقا، وحين كانا على قلب رجل واحد، ومن هكذا الصديقية، والإمعان فيها، ومن معانيها.

فعن عائشة أم المؤمنين: لما أسري بالنبي إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به، و صدقوه، و سعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو

---

(1) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ / ١٩٠

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٦٥

تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوه أو روحه، فلذلك سمي أبو بكر الصديق[1].

وهذا الذي كان منه قوله: فلما بعث النبي ﷺ آمنت وصدقت، ومن لا عكمة أو شك أو ريب.

شرف النسبة وعلو المقام: ولما كان هكذا في قومه عاليا، ومن أنسابه سامقا، ومن خلق حميد به تحلى، ومن حسن سير به كان قد تجلى، إرثا مألوفا، وصنيعا منيفا.

الأشناق: وحين كان الرجل، وأن يتحمل عن غيره، حمالة من دية، وإنما كان؛ ولصدقه أن يتبعوه، ويكأنه ومن شرفه لم يخالفوه. ودلك على هذا الصنيع أنهم وحين كان يحمله غيره، وإذ لم يعبأوا به!

سبق إسلامه: وقد بينا في موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات، أن الرجل كان إلى الإسلام أسبق، وإذ لم يحل بينه وبينه خوف على زعامة، أو خشية من ملامة.

وقال إبراهيم النخعي: أول من أسلم أبو بكر[2]. ولعل هذا محمول على أنه أول من أسلم من الرجال.

([1]) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٣٠٦

([2]) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة - ط العلمية، ابن الأثير:٣/٣١٤

إسلام أبي بكر الصديق

ثم إن أبا بكر لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آبائنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر اني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته فأدعوك إلى الله بالحق فوالله إنه للحق وأدعوك إلى الله يا أبا بكر وحده لا شريك له ولا يعبد غيره والموالاة على طاعته أهل طاعته وقرأ عليه القرآن فلم يقر ولم ينكر وأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الاسلام ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق[1].

كان إسلام أبي بكر الصديق أنفع، إذ كان صدرا في قومه معظما، ورئيسا في قريش مكرما، وصاحب مال، وداعية إلى الإسلام. وفيه أن إسلام رؤساء القوم يعد نصيرا للدعوة.

قال أبو بكر: أحق ما تقول قريش يا محمد؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ وهذا دليل إشاعة الجهر بالحق بلا اعتبار لموروثات القوم!

وهذا رده ﷺ: فو الله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى:

١- الله وحده لا شريك له.

٢- ولا تعبد غيره.

٣- والموالاة على طاعته.

وهذه ثلاث محكمات، وهن ضابط إسلام المرء.

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢ / ١٢٠

وإذ دعا الرسول ﷺ أبا بكر قائلا: إني رسول الله أدعوك إلى الله، فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر. لم يتلعثم تلعثم غيره في قبول الحق. وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورا منه بإسلام أبي بكر[1]. فسرور عبد بهدي عبد فضل ونعمة.

وهذه فراسة رسول الله ﷺ في صاحبه. وقد كانت له في الإسلام صولات خير.

وإظهار البشاشة لدى سماع نبأ خير هدي سنة. ولأنه" وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورا منه ﷺ بإسلام أبي بكر.

والبشاشة خلق حسن. وأول ثمارها راحة فاعلها، قبل غيره، فالتحلي بها خير وبركة.

وإذ قال نبينا ﷺ: وما عرضتُ الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة، إلا أبو بكر، فإنه لم يتلعثم في قوله[2]. لأنه رجع مسلما مصدقا، ولم تأخذه هنة من مراجعة، فالحق نور.

وإذ لا يترك معسكر الكفر من آمن، وإذ لا يرحم من أسلم، ولو كان رأسا فيهم يوما! ولأنه قد اشتد أذى قريش لأبي بكر، وبعد إذ آمن!

قالوا: لم يكن أبو بكر أولهم إسلاما، ولكن كان أفضلهم إسلاما! وهذا تعبير يند عن وصفه، وتتقاطر منه معاني فضله[3].

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١ / ٤٣٩
(2) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢ / ١٢٠
(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٨

قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة: أعبد وامرأتان، وأبو بكر. ومنه فإن غثاء السيل عمل غير صالح! وإن قلة مؤمنة بربها، وإنها لتزن الجبال قيمة وفضلا. ويكانه هذه مسارعة النساء، ومسابقتهن إلى الهدي، حتى أشرفن على مناصفة الرجال!

وهذا اهتمام الإسلام بالعنصر البشري، ولوكان عبدا! ولقد كان للعبيد فيه شأن!

ألبست قريش المسلمين أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فواتوهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله. وإذ بلغ إيمانه به تضحية فريدة.

عن عبدالله بن مسعود: كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد[1].

قال أبو حنيفة: أول من أسلم من الرجال الأحرار: أبو بكر، ومن النساء: خديجة، ومن الموالي: زيد بن حارثة، ومن الغلمان: علي بن أبي طالب.

وأسلم على يدي أبي بكر: الزبير، وعثمان، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن، وهؤلاء الخمسة كان لهم في الإسلام. فحسن اختيار معادن الناس فراسة وتوفيق وإلهام.

([1]) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٢٢

إيذاء أبي بكر في الله تعالى وصبره فيه

عن أبي الدرداء: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو الدرداء ونحن عنده: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم هذا فقد غامر قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أنتم تاركون لي صاحبي، هل أنتم تاركون لي صاحبي، إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت قال أبو عبد الله: غامر: سبق بالخير[1].

آذى المشركون أبا بكر، وما كان له من هم إلا قوله: ما فعل رسول الله! وأولاء هم رجال حول رسولهم محمد ﷺ. ينافحون عنه، ويدفعون عنه، ويدافعون عنه، ويذودون عنه، وإن كلفهم ذلك ما كلفهم!

وإذ قال أبو بكر: ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذا إباء عبد، وهذه شكيمته في الحق.

وهكذا الحق، يواجه أهل الباطل أهله! ولو كان صاحبهم من أمس! فقد أوذي أبو بكر! وكان رأسا فيهم!

وهذا دفاع نبي عن صاحبه. أسوة حسنة. وفيه أن عادة أهل الباطل تكذيب الحق وأهله! والتهوين من كيد العدو أمام القائد فيه طمأنة للصف في مواجهة خصوم الدعوة. وفيه التهوين من بذل النفوس في الله تعالى.

([1]) صحيح البخاري: ٤٦٤٠

وعلى أنه ولما أوذي أبو بكر أكبَّ الرسول ﷺ عليه فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رقة شديدة. وهذه هي مشاعر القلوب الرحيمة. ولو كان فيه تناسي ما قد حدث لهم معه هو نفسه.

مطالبة أبي بكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة

عن عائشة؛ قالت: لما اجتمع أصحاب رسول الله وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله في الظهور؛ فقال: يا أبا بكر إنا قليل فلم يزل أبو بكر يلح عليه وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر خطيبا في الناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله[1]. وفيه أن هؤلاء هم أعوان الخير، وهذه هي مناقبهم، وإذ يشدون من أزر قائدهم. وهذه أيضا طموحات سامقة. وكما وأن فيه حسن تقدير القائد للمواقف.

وشد أزر القائد في إظهار الحق دأب جنده المخلصين. وإن القائد ليستأنس بمواقف رعيته الخالدة. وحين يستكثر أبو بكر بثمانية وثلاثين رجلا. لا كغثاء سيل!

من فراسته

عن ابن شهاب قال: أتى أبو بكر الصديق بسارق فقال: اقطعوا يده فقال: أقلنها يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فو الله ما سرقت قبلها فقال له أبو بكر: كذبت والذي نفسي بيده ما غافص الله مؤمنا بأول ذنب يعمله[2].

من ورعه

وذلك أن: أن حنظلة الأسيدي -وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند

---

(1) أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان: ج ١ / ١٨٢
(2) المحلى، ابن حزم: ج ١١ / ١٥٨

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات[1].

من شجاعته

أشجع الناس أبو بكر رضي!

سأل على رضي الله تعالى عنه عمن هو أشجع الناس فأشاروا إليه فأخبر أنه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ولما كان يهوي بسيفه على من أراد نبينا ﷺ بسوء في عريشه يوم بدر.

إن شهادة عليٍّ أن أبا بكر هو أشجع الناس، ورغم كهولته، برهان أن أمتنا شابة، لا تشيب، ولأنه كان فيها أمثال هذين الشجاعين أبي بكر وأبي الحسن رضي الله تعالى عنهما.

قال: ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش، فهذا يحاده، وهذا يتلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلها واحدا، فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله[2]. وهذا برهان عمل القائد قدوة إقدام وصبر.

---

(1) صحيح مسلم: ٢٧٥٠

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ /٤١١

وإذ قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر[1]؟

وهذا حث للأمة أن تستصحب تاريخها الناصع قدوات، فتكون زادها على طريق، ليس مفروشا بالورود.

إن استلهام الرشد، يكون من قدوات صنعت تاريخا مجيدا، سطر بماء، لا كالذهب، بل أثبت مكانة، وأقوم سبيلا، مدرسة للأجيال، وحاضنة للباذلين.

وقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه أيضا مجيبا عن سؤاله الذي طرحه آنفا: فو الله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه - رخصةً - وهذا رجل أعلن إيمانه عزيمةً!

إنه ليأتين زمان على الناس يكون الأخذ بالعزيمة في أمور دينهم أرشد كأبي بكر، ويكون الوقوف على الترخص أهوى، وحين يرضون بالزرع، ويتبعون الكلأ والعشب!

ما أحسن فقه عليٍّ - رضي الله تعالى عنه - وحين استحضر برهان أفضلية أبي بكر لعزيمته، على مؤمن آل فرعون لرخصته، برهان أن درجة العزيمة أعلى، وأن مكانة الرخصة أدنى!

إن أعمال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كانت كلها عزائم! يوم الغار مثال، ويوم بدر مثال آخر، ويوم المرتدين مثال، عنوان أن هذا الدين يلزمه رجال أولو عزائم، ينفحون عنه ويذودون!

وهذا يوم الحديبية وحين كان من شجاعته قول أبي بكر: يا رسول الله، خرجت عامدا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: (امضوا على اسم الله[1].

([1]) المرجع السابق: ج ٢ /٤١١

وهذا يوم خيبر وحين استعصت خيبر على الفتح يومين كاملين. وبعد محاولتين خاض كلا منهما أبو بكر وعمر على الترتيب، وليتم الله تعالى الفتح على يدي علي، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يأخذها عنوة» وليس ثم علي. وكان هذا علما آخر ضافيا على نبوته صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه قد أتم الله تعالى على يديه فتح خيبر[٢].

وهذا يوم سرية بني فزارة، بعد فتح خيبر أيضا، وحين قال سلمة بن الاكوع: وإذ" أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا أبا بكر فغزونا ناسا من بنى فزارة فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة عليهم قال فوردنا الماء فقتلنا به من قتلنا قال فأبصرت عنقا من الناس وفيهم النساء والذراري قد كادوا يسبقون إلى الجبل فطرحت سهما بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع أدم معها ابنة لها من أحسن العرب قال فنفلني أبو بكر ابنتها قال فقدمت المدينة فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوق فقال يا سلمة لله أبوك هب لي المرأة فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا قال فسكت عنى حتى إذا كان من الغد لقيني في السوق فقال يا سلمة لله أبوك هب المرأة فقلت يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوبا وهى لك يا رسول الله قال فبعث بها رسول الله إلى مكة ففادي بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين[٣].

وهذه حكمة أبي بكر وحين أنفلها سلمة بن الأكوع؛ جزاء بذله وحكمته وبأسه وشجاعته[٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٤٤
(٢) السيرة النبوية أحداث ودلالات، للمؤلف: ج٣/١٣٤
(٣) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٨٧و٢٨٨
(٤) السيرة النبوية أحداث ودلالات، للمؤلف: ج٣/١٩٦

وهذه إمارته، فعن سلمة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا أبا بكر رضي الله عنه، فغزونا ناسا من المشركين فبيتناهم نقتلهم، وكان شعارنا تلك الليلة أمت أمت قال سلمة: فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين[١].

من بشارته

كان زيد بن أرقم هو الذي رفع إلى نبينا ﷺ عن عبد الله ابن أبي بن سلول قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأكذبه عبد الله بن أبي وحلف أن زيد بن أرقم كاذب، فأنزل الله تصديق زيد بن أرقم، فتبادر أبو بكر وعمر إلى زيد ليبشراه فسبق أبو بكر عمر فأقسم عمر ألا يبادره بعدها إلى شيء، وجاء النبي ﷺ فأخذ بأذن زيد وقال: وفت أذنك يا غلام![٢].

إن تصديق القرآن الحكيم لصحابة نبينا ﷺ غير مرة، برهان أن هذا الكتاب سماوي!! وحين كان إلفا اجتماعيا للصحب الكرام، وحين تنزل بما قالوه أو فعلوه، برهان نسبة كل قول إلى قائله، وكل فعل الى فاعله؛ لاستخراج مكنونات النفوس؛ نهضة للأمة؛ وهذا هو نبينا ﷺ القائد، ينسب إليهم ما نسبه القرآن إليهم، وهذه رسالة إلى القادة وغيرهم، أن ينسبوا كل قول أو فعل الى صاحبه؛ وكيما لا يضن الموظفون عن إبداء نصح، تتقدم به المؤسسات[٣]!

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٦٣٨
(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٢ / ٥٣٥
(٣) السيرة النبوية أحداث ودلالات، للمؤلف: ج٢٤/٣

من رأفته

أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح([1]).

موقفه يوم الإفك

قال الله تعالى ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل اللهﷺوليعفوا وليصفحواﷺألا تحبون أن يغفر الله لكمﷺوالله غفور رحيم ﴾[النور:٢٢] ؟! كان عزم أبي بكر وحين كان محسنا لصفوان أن يمانعه عطاءه الذي كان منه عليه غدقا! وإذ يسعفه ربنا تعالى بقوله: ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل اللهﷺ وليعفوا وليصفحواﷺ ألا تحبون أن يغفر الله لكمﷺ والله غفور رحيم ﴾[النور:٢٢] ؟! وهذه مقامات الإحسان في ديننا، وأنت خبير أن هذا صنيع عال سامق رفيع، وحين يقطع كيد النفوس مدحورا، وبإحسانها الأقصى! إلى من أساء إليها الإساءة العظمى! ولهذا قال أبوبكر: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا.

و" إن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا"[2].

([1]) صحيح الجامع، الألباني: ٨٦٨

([2]) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣١/٦

فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصص ببظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟! فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك[1].

و " البَظْر ": بفتح الموحدة، وسكون المعجمة : قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة .

و" اللات ": اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمَله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.

وفيه: جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك، وقال ابن المنيّر: في قول أبي بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم " إن اللات بنت الله ! " تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، بأنها لو كانت بنتاً : لكان لها ما يكون للإناث[2].

وفى قول الصِدّيق لعروة: " امصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ ": دليلٌ على جواز التصريح باسم العَوْرة، إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُصرَّح لمن ادَّعى دعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: " اعضُضْ أيْرَ أبيك "، ولا يُكْنَى له، فلكل مقام مقال[3] .

---

(1) صحيح البخاري: ٢٧٣١

(2) فتح الباري، ابن حجر: (٥ / ٣٤٠).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم: (٣ / ٣٠٥).

الفصل الثاني: من هجرته إلى وفاة النبي صلى الله عله وسلم.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: طريق الهجرة إلى الحبشة.

المبحث الثاني: هجرته مع رسول الله ﷺ إلى يثرب.

المبحث الأول: طريق الهجرة إلى الحبشة.

وهذا الذي كانت منه سنة ربنا تعالى، والتي ليس قد كان أبو بكر هذا استثناء منها، ولأنه ومن كمثل الذين قال عنهم ربهم سبحانه وتعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طرفى النهار بكرة وعشية.

فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي.

قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج.

فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار.

فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف كفار قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر.

وقال وا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا.

قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وبرز، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا

له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلى ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له.

قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله - ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومئذ بمكة- فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان.

فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة.

وتجهز أبو بكر مهاجرا، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي.

قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم.

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر"[1].

المبحث الثاني: هجرته مع رسول الله ﷺ إلى يثرب

ودلك على صحة مذهبنا هذا، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما دعوت أحدا إلى الاسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر ما عكم عنه حين ذكرته، ولا تردد فيه "، عكم - أي تلبث "[2].

وهذا الذي كان منه مساندته لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي كانت منه مؤازرته، ولهذا جاء من الحديث قوله: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها

---

(1) صحيح البخاري: ٢٢٠٢

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ /٣٧

يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن صاحبكم خليل الله[1].

وهذا الذي كان منه موجب الخلة، وسبيل الأخوة، بين هذين العلمين، نبينا محمد بن عبد الله، وهذا الذي قال يوما: وخليلاه!

وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ؛ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر[2].

ولأنه هو هذا العبقري وها هو الرجل الذي عز على التاريخ أن يبلغ مجدا ومن مجده وحين كان من حكمته قوله: إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يري من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد فإياك وعبية الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل

([1]) صحيح الجامع الألباني: ٥٦٦١
([2]) صحيح البخاري: ٣٩٠٤

الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك، وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكم أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الاستار، وأكثر حرسك، وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة[1].

المبحث الثالث: برهان النبوة وعلامة الرسالة

وإلا أن هذا أبوبكر، وحين قد استلهمنا من خبره علامة النبوة، ودالة الرسالة، لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قبل مبعثه ومنضافا إلى خبره، ومن بعد مبعثه، وليجتمع البيان، ومن رجل واحد هو ورقة بن نوفل، وحين كان عالما بدلائل التوراة، وآيات الإنجيل، عن نبوة نبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كان عما لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ولما كان من خبره له صلى الله عليه وسلم أنه قد جاءه الناموس، الذي كان قد تنزل على من كان قبله، من كل ومن موسى بن عمران، والنبي عيسى بن مريم، عليهم صلوات الله وسلامه، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

وهذا الذي تتأيد معه دالة صدق الصديق، ولما لم يتلعثم، ولما لم تكن له من عكمة، وعلى وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له.

وإلا أننا وحين نستلهم هكذا علامات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومما قد سجله التاريخ؛ وليكون آية على زيادة المؤمنين إيمانا مع إيمانهم، ودعوة لأغيارهم، وحجة على أعدائهم.

([1]) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ٤٠٤

قال أبو بكر الصديق: كنت جالسا بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا فمر به أمية بن الصلت فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير، قال: وجدت؟ قال: لا، فقال: كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحنيفية بور، أما! إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي ينتظر ولا يبعث، فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي! إنا أهل الكتب والعلماء إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبا ولي علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسبا، قلت: يا عم! وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له إلا أنه لا يظلم ولا يظالم، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت به وصدقت[1].

وإلا أنك قد شممت عبق طيب المكان، ومنه اختيار المكان الملائم، والبيئة المناسبة؛ لتلقي الأمر! وحين كان بيت الله تعالى هو المحل، وإذ فيه تتنزل البركات، وهذا أمر نافع جد نفعه، وحين اختيار البيئة الملائمة لإبرام أمر هام!

فأل حسن: وإلا أنك قد رأيت ثم رأيت الفأل الحسن، ومن مخاطبة أمية بن أبي الصلت أبا بكر، ومن قوله: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ ومن تحسس حاجات الأحباء الأصفياء الأنقياء الأتقياء، ومن هكذا استجاشة الصدور، وبما فيها من خلالها الخيرة، ومن وصفه بأنه باغ مريد للخير، وأيا ما كانت سبله، وحين التمست طرقه!

وغير أنك قد لاحظت أيضا هذا النبأ الشائع عند الناس يومهم هذا، وحين كان انتظارهم لمبعث نبي جديد، يخرجهم ربهم به من الظلمات إلى النور.

([1]) كنز العمال، المتقي الهندي: ج ١٢ / ٣٥٢

وكيف كان منهم تحمس، وحين كان منهم تلمس!

وكيف كان من بحث عن الحق ودواعيه، ولما كان منه البراءة من شرك الناس يومهم هذا، ومن قول أمية بن ابي الصلت: كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحنيفية بور!

وكيف كانت صديقية أبي بكر، وهذا الذي كان منه قوله: فلما بعث النبي ﷺ آمنت وصدقت، وهذا هو الاصفاء، وذلكم هو الاجتباء.

المبحث الرابع: من أوصاف ورقة!

وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر": هذا وصف لورقة بن نوفل، وما أجله من نعت! ومنه يستشار الأخيار ويؤتمن الأبرار! ومن كانوا من ذوي السيرة الحسنة، بين أقوامهم، ومن كمثل ورقة، ومن كمثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان موسوما بوسم الصدق، وتاج الأمانة، بين قومه، ومن قبل مبعثه!

المبحث الخامس: أوصاف نبينا كما قد رآها ورقة!

١- **إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبا ولي علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسبا:** وهذا من وصف النبي، وما أحسنه وصفا! وحين يكون العبد وسطا، من نسبه، شريفا من حسبه.

ومنه أيضا يختار من القوم النجباء، وينتقى منهم الأتقياء الأصفياء.

وهذا الذي قال عنه ربنا الرحمن سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[سورة الحج: ٧٥].

٢- **يقول ما قيل له:** وهذا من وظيفته، وتلك من مهنته، أنه متبع لربه، وإذ ليس يخرج عنه مراده شيئا.

وفيه عمل الأمير، وحين يترسم هدي مولاه، ولما يقتفي سناه.

٣- **إلا أنه لا يظلم ولا يظالم:** ولكن هذا النبي، وإذ كان من وصفه عندهم! أنه ليس يظلم، وليس يقع منه حيف، أو جور.

وتلك منقبة، عز نظيرها، أو في الوجود مثلها! وإذ تشي بهكذا الحيدة، لا تعديا، ولا بخسا، ولا زيادة، ولا نقصا، ولا من حيث الزمان، ومن كوصف الصلاة، بتأقيتها، على وقتها، أو مكانا، ومن كالوقوف بعرفة، وإذ ليس يسد مسده وقوف بغيره!

وإذ ليس هذا النبي يظالم؛ وهذا من خلقهن وسمته، وورعه؛ ولأن الدخول في المخاصمات، يوغل صدرا، ويورث ضغنا!

وهذا الذي أنف ولعله يؤيده ما أخرج أبو نعيم عن بعض الصحابة أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة أي علم أنه النبي المنتظر لما مر عن بحيرا الراهب ولما سمعه من شيخ عالم من الأزد قد قرأ الكتب نزل به في اليمن فقال له أحسبك حرميا فقال أبو بكر نعم فقال له أحسبك قرشيا قال نعم فقال له أحسبك تيميا قال نعم قال له بقيت لي فيك واحدة قال وما هي قال له تكشف لي عن بطنك فقال له لا أفعل أو تخبرني لم ذلك فقال أجد في العلم النجيح الصادق أن نبيا يبعث في الحرم يعاون على أمره فتى كهل فأما الفتى فخواص غمرات ودفاع معضلات وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة أي مع كونه حرميا قرشيا تيميا بدليل قوله أحسبك حرميا أحسبك قرشيا أحسبك تيميا وما عليك أن تريني ما سألتك فقد تكاملت فيك الصفة أي كونه حرميا قرشيا تيميا أبيض نحيفا إلا ما خفى علي فقال أبو بكر فكشفت له عن بطني فرأى شامة بيضاء أو سوداء فوق سرتي أي ورأى العلامة على الفخذ الأيسر فقال أنت هو ورب الكعبة قال أبو بكر فلما قضيت أربى من اليمن أتيته لأودعه فقال أحافظ عني أبياتا من الشعر قلتها في ذلك النبي قلت نعم فذكر له أبياتا قال أبو بكر فقدمت مكة وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم فجاءني صناديد قريش كعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة وأبي جهل وأبي البختري فقالوا يا أبا بكر يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي ولولا انتظارك ما انتظرنا به فإذا قد جئت فأنت الغاية والكفاية أي لأن أبا بكر كما تقدم كان صديقا له صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر فصرفتهم على أحسن شيء ثم جئته صلى الله عليه وسلم فقرعت عليه الباب فخرج إلي وقال لي يا أبا بكر إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فآمن بالله فقلت وما دليلك على ذلك قال الشيخ الذي أفادك الأبيات فقلت ومن أخبرك بهذا يا حبيبي قال الملك العظيم الذي يأتي الأنبياء قبلي قلت مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فانصرفت وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي[1].

([1]) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ١ /٤٤٣، ٤٤٤

ودلك على أنه كان أسبق بإسلامه ما أنف، وعلاوة على ما قد جاء، ومن حديث عمرو بن عنبسة، وحين دخل الإسلام، ويوم أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وبلال، وإذ يقول يومها: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: من تابعك على أمرك هذا؟ قال: حر وعبد، يعني أبا بكر وبلالا رضي الله عنهما، وكان عمرو يقول بعد ذلك: فلقد رأيتني وإني لربع الإسلام[1].

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٩٤٣٤، خلاصة حكم المحدث: صحيح

المبحث السادس: هجرة أبي بكر الصديق

وهذه الهجرة في الله تعالى لها شأنها؛ وعندها تاريخها ومجدها، ويوم أن أشار الصديق غير مرة بها، ولما كانت من هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا أنه يخبر أنه لم يؤمر بعد! وحين كان يسأله صاحبه أبو بكر وعما إذا كان ذلك قادما فيخبره وأن نعم، وإذ هذه سنة النبيين، أن يخرجوهم أقوامهم، وحين لم ننس أيضا خبر ورقة بن نوفل أول المرة، وحين أنبأ أنه ولسوف يخرجه قومه، ولأنه ولما لم يأت نبي بمثل ما قد به جاء هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا أنه يعادى، وغير أنه يخرجه قومه أيضا. ولذا كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ينتظر!

وكان من نظرة أبي بكر هو ذلكم الإعداد، وهو ذلكم الاستعداد أيضا، ولما كان قد اشترى راحلتي الهجرة، ويقوم عليهما علاجهما!

قال الشهاب الرملي: لو قال أبو بكر لم يكن من الصحابة كفر، ولو قال ذلك لغير أبي بكر لم يكفر، وفيه نظر: لأن الإجماع منعقد على صحابة غيره، والنص وارد شائع([1]).

وعلى أية حال، فإن النظر من جهة صحبته؛ ومن نص القرآن، وإلا فإنه قد نص على صحبة غيره أيضا، ومن حديث النبي المصطفى العدنان أيضا، وحين قال بل أنتم اصحابي!

فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة، فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا قالوا: أولسنا إخوانك؟ يا رسول الله، قال: أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا رسول الله، فقال: أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله،

([1]) إعانة الطالبين، البكري الدمياطي: ج ٤ / ١٥٥

قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا. وفي رواية: فليذادن رجال عن حوضي[1].

وعن عائشة أم المؤمنين: لقل يوم كان يأتي على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا يأتي فيه بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، فلما أذن له في الخروج إلى المدينة، لم يرعنا إلا وقد أتانا ظهرا، فخبر به أبو بكر، فقال: ما جاءنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل عليه قال لأبي بكر: أخرج من عندك، قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي -يعني عائشة وأسماء- قال: أشعرت أنه قد أذن لي في الخروج؟ قال: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة، قال: يا رسول الله، إن عندي ناقتين أعددتهما للخروج، فخذ إحداهما، قال: قد أخذتها بالثمن[2].

وفيه فوائد، منها:

١- **مراعاة العمل السري:** ومن قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: أخرج من عندك وهذا الذي من شأنه أن يكون عليه أمر الدعاة العاملين وكيما يكون أمرهم من تأن ومن خطة محيطة، تعني بأمر سرها؛ وكيما لا يفشون أمرها، فتكون للعدو صيدا سمينا.

ويؤكد على هذه السرية أيضا، ومن فعله صلى الله عليه وسلم أيضا وحين: أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج، أتى بأبي بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٤٩
(٢) صحيح البخاري: ٢١٣٨
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢١٨

٢- **وهذا أيضا من عقيدة الأخذ بالسبب:** مع كمال التوكل على الله تعالى، وتفويض الأمور كلها إليه تعالى. وإذ ليس يقدح هذا من شيء في حقيقة التوكل، الذي هو في الأصل تفويض الأمر إلى الله تعالى، مع وجوب الأخذ بالسبب الموجب.

٣- **مراعاة أوقات الزيارة الشرعية:** ومن قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة النور: ٥٨]. وكذا ومن قول عائشة أم المؤمنين: لقل يوم كان يأتي على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا يأتي فيه بيت أبي بكر أحد طرفي النهار.

٤- **جواز الزيارة في غير وقتها لضرورة شرعية:** ومن فعله صلى الله عليه وسلم، ومن قول عائشة أم المؤمنين: لم يرعنا إلا وقد أتانا ظهرا.

٥- **إيثار أبي بكر:** وحين أعد ناقتين؛ لهكذا حدث تاريخي مجيد. ومنه تشوفه لهذا اليوم أيضا؛ دلالة إعداد الراحلتين؛ وليومهما هذا!

٦- **خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعدله ونصفته:** وحين اختار إحدى الراحلتين، وإنما بثمنها.

٧- **ثقة أبي بكر في ابنتيه عائشة وأسماء:** ولما كانتا محلا لمثل هذه الثقة، ولا سيما أنهما تربية رجل، كان من حكمته معروفا، ولما كان من حسن صحبته مألوفا.

٨- **موافقة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أبا بكر، على ثقته:** وفيه ائتمان من كان أهلا للأمانة، ومن كل من الصديق أبي بكر، ولما صدقه تزكيته النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا عائش وأسماء. ولا سيما أيضا هو هذا الدور الفعال لأسماء ذات النطاقين، في حدث الهجرة التاريخي المجيد.

٩- تشوف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليوم الهجرة هذا: ومما أنف، وكذا؛ ومن قوله لأبي بكر: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا[١].

المبحث السابع: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟!

هذا شأن القائد الذي أخذه توكله على مولاه الحق المبين، وأن يكون هكذا به يقينه بربه تعالى أيضا.

وحين يكون قائد هذا وصفه، وإذ يغرس هذا التوكل، وهذا اليقين، في رعيته، ولا سيما الخلص منهم، والذين يعدهم عدا؛ لتولي مركز القيادة والخلافة، ومن بعده.

وحين يكون هكذا شعور أبي بكر أيضا، ولما كان عبدا، ولا ريب أنه يمكن أن تخالجه، ومن مثل هذه المشاعر، آدميا، بشرا، يسري عليه، ولو من ثقب، ما يسري على أغيار، ومن كمثله، ولما لم يصل به أحدهم يقينه، ومن كمثل ما قد وصل إليه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى أن هذه هي مدرسة النبوة الأولى، وحين تصنع عبادا، لهم مع ربهم هذه الصلة، والقائمة على أسبابها، ومن حسن ظن بربهم تعالى أيضا.

وحين يكون ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢١٨

ولما كان هذا هو حس هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولما كان قد وقع في روع أبي بكر، هو ذلكم اليقين، ومن بعده أيضا. ولما كان من خبره قوله: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟[1]!

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما كان هكذا بربه تعالى يقينه، وإذ كان ربه تعالى عند حسن ظن عبده به، ولا سيما أنه نبيه ورسوله ومصطفاه ومجتباه، إلى عبيده، وحين أعمى المشركين، ومن حق، عنهما، لإتمام كلمة الله تعالى العليا، ولما كانت كلمة الذين كفروا السفلى، وإذ ليست تعلو يوما!

المبحث الثامن: السياسة الحكمية في الحيلة الشرعية

ولكن هذا توفيقا منه تعالى لوليه أبي، وحين كان سببا في تعليمنا، معاشر السلف هكذا، وكيف تكون الحيلة مخرجا! ولما كان التعريض سبيلا ممكنا، وللخروج بميزتين عظيمتين:

وأما أولاهما: فالخروج من كذب ماحق هاد إلى الفجور.

وأما ثانيتهما: فهو تحقيق الفوز بالخروج وصحبه سالمين، ومن قبضة الملاحقة، التي كانت قد شنتها قريش عليهما، ومن تتبعهما.

ولست أقول بأقل خسائر ممكنة، وكما يقوله عسكريو الزمان، بل بكل نصر مظفر ممكن!

([1]) صحيح البخاري: ٣٦٥٣

ولما كان من شأن أبي بكر، هو هذا الذي سأله الرجل عن صاحبه النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما عاد ليصفه كونه هاديا الطريق! وما أدراك ما الطريق! إنه سبيل ربه تعالى الصراط المستقيم، وليس كما قد دار وفي خلد سائله، أنه الطريق المادية المؤدية إلى محلة أو بلد!

وباب الحيلة الشرعية واسع، ومؤداه هو هكذا، ومن قول أبي بكر؛ لتحقيق نفع، ولو محتملا، وفضلا أن يكون مغلبا، أو لدفع ضر، ولو محتملا، وفضلا أن يكون مغلبا.

وعليهما تقوم المصلحة.

وهذا سبق إسلامي فريد، وإنما كانت العمدة فيه، لمدرسة النبوة الأولى، ولما كان نبينا الأمي العربي القرشي محمد صلى الله عليه وسلم قائدها، وحين كان أبو بكر التيمي القرشي سائسها!

وإنما كانت الحيلة الشرعية جائزة، ومن وجهها الذي أنف؛ لتحقيق أمر شرعي، ومصلحة شرعية راجحة.

ومنه، فإن الحيل لتحقيق مأرب حرام، أو ما قاربه، وإنما تأخذ نصيبها من الحرمة، وبقدر ضررها الذي وقع، أو كان محتملا وقوعه.

وسواء قلنا بحلها؛ ولما كانت شرعية، ومن ميزتها الآنفتين، وإنما تكون حراما، وحين قد خلت منهما أو كلتيهما.

وشرعيتها مستمدة من القاعدة الشرعية أن: الوسائل لها حكم الغايات.

فعن أنس بن مالك: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من

هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير[1].

المبحث التاسع: إيثار الأبرار

وعلى أن هذا الإيثار، ولما كان صفة لصيقة بأبي بكر، وحين حكته حكاية الهجرة، ولما كان من أمره يوم أن تطلب ظلا؛ لراحة صاحبه، وإذ لم يجد سوى بعض ظل صخرة، وإذ ليس يكفي إلا واحدا، فسواه وللنبي صلى الله عليه وسلم، وليضطجع راحة من عناء سفره! وأبو بكر هذا هو يسوي من تحت صاحبه التراب، لينام مستريحا، ومن حكاية الإيثار، ومن أوسعها بابا!

وإذ ليس يقف الإيثار يومه هذا، عند حده هذا، وإنما ويومها وحين استأذن أبو بكر صاحب الشاة، أن يطوع ببعض لبنها؛ لصاحبه، ولما ارتوى فاطمأن، وإذ أعطاه أولا! ومن ثم هو ثانية، في حكاية الإيثار أيضا!

وهذا تكرار آخر لمنظومة المعية الربانية، وحين تطلبهما سراقة، وإذ يقرب ما كان قاب قوسين أو أدنى!

وهكذا كانت خيفة أبي بكر ووجله، لا على نفسه، بل على نبيه! وإذ يخبر لصاحبه، وإن الطلب قد أوشك!

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ يعلمنا، ومن جديد، حكاية اليقين، برب العالمين، سبحانه وتعالى، ومن قوله مرة أخرى: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾!

([1]) صحيح البخاري: ٣٩١١

وهكذا كانت حكاية سراقة بن مالك! ومن عثراته، ولما كان منه أن ينهض مرة، وحين يعزم أمره ألا يمس النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن سوء وإلا أن شيطانه قد أخذ يراوده مرة ومرات، حتى استوى قائما، مستيقظا على هكذا الإعجاز، الذي لم يترك له ثقبا من نافذة، وإلا قد أجاب عنها، ليخر سراقة أمام قوة الحق المبين، وحين انبهاره؛ ومن إعجاز رب العالمين، ومن ثم كان إعطاؤه الأمان للصاحبين! بل والتعمية عنهما! ولما لم تنفعه أزلامه، التي ما فتئت، وإلا أن خاب وخابت معه أزلامه أيضا، وحين خارت قواه، وأمام صولة الحق المبين!

وهذ حيث الإمام البخاري وإذ يحكي لنا صورة ويكانها نراها، وحين: اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمل إلي رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا: كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟ قال: ارتحلنا من مكة، فأحيينا، أو: سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام، قال لرجل من قريش، سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال: بلى. فارتحلنا والقوم

يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن إن الله معنا[1].

وهذا الذي كان منه صحبته، وهذا الذي أضحت منه خلته!:وحين قال هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا[2].

([1]) صحيح البخاري: ٣٦٥٢
([2]) صحيح مسلم: ٢٣٨٣

المبحث العاشر: شهوده المشاهد

وقعة بدر أولا

وهذه وقعة بدر العظمى ويوم أن تقلد حضورها، وحين أن توسم وسامه، وقدرها وشرفها وأجرها!

ولهذا السبب كانت الملائكة له حظا ونصيبا وقرينا من الله تعالى ورضوانا أيضا، وفي ملمح نبوي كريم لهكذا صاحب كريم، والذي ما فتئ وإلا أن يكون مقدم صفه؛ ذودا عن حياض دين ربه، وشفقة وحرصا ودفاعا عن نبيه.

ولهذا جاء في الحديث: لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا[1].

ولكن هذه رحمة الصاحب بصاحبه، ولا سيما أنه أبو بكر، وخاصة أنه النبي! وحين كان اقتراحاته، ولما كانت مشوراته، ويوم العريش ليس بعيدا، بل قريبا، رؤية لب، وبصيرة فؤاد!

وهذه طمأنة أبي بكر للنبي، ويوم انطراحه بين يدي ربه تعالى؛ أن ينصره نصره المؤزر، وحين قد كان منه تعالى وعده، وربنا تعالى ليس يخلف الميعاد، وحين أصدقه ربه نبوءته، ولما منحه مولاه فراسته، ولما كانت منه تعالى لنبيه استجابته، ومن قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

([1]) صحيح مسلم: ٢٣٨٣

ومنه الحديث: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة [١].

---

(١) المرجع السابق: ١٧٦٣

المبحث الحادي عشر: موقفه من أسارى بدر

لما كان يوم بدر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟"، قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم، واستأن بهم؛ لعل الله أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم نارا، قال: فقال العباس: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرد عليهم شيئا، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "إن الله ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: {من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا} [نوح: ٢٦]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: رب {اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٨٨]، أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء، أو ضربة عنق"، قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل ابن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم، أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم، حتى قال: "إلا سهيل ابن بيضاء"، قال: فأنزل الله عز وجل: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم} [الأنفال: ٦٧]، إلى قوله: {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} [الأنفال: ٦٨][1].

([1]) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٣٦٣٢. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

شبه نبينا ﷺ عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه بنبيه تعالى نوح عليه السلام ولأنه تعالى قال فيه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح: ٢٦و٢٧].

شبه نبينا ﷺ، الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، بنبيه تعالى موسى عليه السلام، ولأنه تعالى قال فيه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[يونس: ٨٨].

وإن نظرا إلى أبي بكر وعمر، رضي الله تعالى عنهما، وأنهما كمثل أربعة أنبياء! موجب نظر أنهم مباركون، وأن أمتنا ولادة لأفذاذ، يديرون حركة التاريخ، بإعجاب منقطع نظيره!

إن أمتنا بحاجة إلى إثرائها، بأمثال عمر، رضي الله تعالى عنه، شدة؛ لوقتها، ورفقا كأبي بكر، رضي الله تعالى عنه؛ لزمانه، وكيما يتحقق فيها قول القرآن الحكيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولعله، وكفاه أن حضر المشاهد كلها مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولاسيما يوم أحد ويوم هوازن ثقيف؛ ولأنه قد انكشف الناس عنه صلى الله عليه وسلم وإلا أن أبا بكر ظل مع صاحبه في الميدان!

المبحث الثاني عشر: ومنه يوم العسرة

ولكن هذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وإذ يطلب من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو ربه، ولأن ربه تعالى قد عوده خيرا! وهذا هو الظن الحسن بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وحين لا يرد سائلا، ولما يجيب مضطرا، إذا دعاه، وليكشف عنه السوء، ولمَّا يقرره رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقوله: أو ترى ذلك يا أبا بكر؟ وليرد أن نعم، ثم ليرفع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى ربه تعالى، ولا يكادها تنزل، وإلا السماء سحا غدا مجللا، سقيا رحمة، لا سقيا غرق ولا هدم ولا عذاب، وحين راحوا يتلمسون إعجازها، وإذ رأوا غمامة ممطرة عليهم وحسب! وإذ لم تجاوز سماءهم!

فعن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن العسرة قال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله قد عودك الله في الدعاء خيرا فادع لنا فقال: (أتحب ذلك) ؟ قال: نعم قال: فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة فسكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

وقد تقدم في موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات، قسم عظيم من أداء هذا الرجل الصديق وما كان من أمر البيعة وصحتها.

([1]) تخريج صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: ١٣٨٣

وهذا الذي كان منه كلام الفاروق عمر عنه أخيه أبي بكر! علو قدره، ورفعة شأنه، ثاني اثنين إذ هما في الغار، وما كان منه من ثناء، وما قد قاله عنه من احتفاء، وحين قال: أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس[1].

ومنه كانت بيعته، وعليه بدأت خلافته.

المبحث الثالث عشر: أمير أو مأمور؟

هذا أدب جم، وخلق حسن نبيل، تحلى به هذا الصديق أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وهو تواضع جميل، ويكأنه منبئ عن هكذا معدن جليل أيضا، ولا سيما عند النظر إلى سني عمر هذا الشيخ الشميل، أبي بكر! الصديق! رضي الله تعالى عنه، وإذ كان شيخا طاعنا، ولكنها الطاعة لهذا النبي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبين عمر هذا الشاب الشميل أيضا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وحين النظر إلى هكذا جيل، ومن هذه الحيثية، فلربما دارت بنا البوصلة ثلاث مائة وستين درجة كاملة! اندهاشا! بل ليس كذلك، بل سكينة قلب، وطمأنينة لب، وأن هكذا من تربى على مائدة هذا الكتاب الحكيم، الذكر المبين، القرآن العظيم، بذلا وفناء في هذا الحق الذي كانوا به يعدلون، ومنه كان زادهم لمعادهم وآخرتهم معا، حتى كانوا بحق ذلك الجيل الذي يستوي فيه أن يكون أحدهم مأمورا، ولو كان شيخا طاعنا، أو أميرا ولو كان شابا راشدا!

وهذا المعني عظيم القدر، كريم الشأن، وقد مر بنا منه كثير إبان تناولنا مثله، ومن هذه السيرة النبوية المباركة، ويكأنها جواهر ذُخَرُ، ويكأنها قناديل زُهَرُ!

([1]) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ٣٢٥

وإذ ها هو حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين أثنى على عبيد كان من شأنه التجرد، ولما كان من فعله التفرد، وحينة كان لله تعالى فيه مخلصا.

ويكأنه عبد، ومن ثم فليس مهما أن يكون في المقدمة أو في الساقة، وحين قال صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع [1].

وهو إذعان لهذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أرسل أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ليحج بالناس العام التاسع للهجرة. وهذا برهان آخر على إعداد القادة، ولتولي مهامهم يوم أن تحتاج إليهم الأمة، وكيما يكونوا جنود ميدانهم، وفرسان جبهتهم، يوم لزمت جنديتهم، أو قيادتهم، أو غير ذلك من مصالح الأمة الإسلامية عامة[2].

([1]) صحيح البخاري: ٢٨٨٧

([2]) السيرة النبوية أحداث ودلالات، للمؤلف: ج١٤٥/٤

المبحث الثالث عشر: موقفه يوم موت النبي محمد صلى الله عليه وسلم

وعن عبد الله بن عمر أريت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا، أو ذنوبين نزعا ضعيفا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا، فلم أر عبقريا يفري فريه حتى روي الناس، وضربوا بعطن[1].

ولكن هذه الإرهاصات، وإنما قد تنزلت تترا، ويوم الثامن من ذي الحجة، وحين كانت آية المائدة الثالثة، ويوم عرفة، وحين كان قوله صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا.

وكذا يوم أوسط أيام التشريق، وحين كانت سورة النصر، ولتتكون في ذهن المستقبل هذه الرسائل الثلاث؛ ولتعمل عملها فيه، وإن هو نبينا صلى الله عليه وسلم، بأبي هو وأمي ونفسي وأولاء هم الصحب الكريم الأخيار الأبرار، رضي الله تعالى عنهم، بل هذه هي النخلة، ويوم أن بكت لفراقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويوم أن كانت منبره صلى الله عليه وسلم، بل وهذا هو الوجود كله، وحين قد آنس منه هاهنا رحمة، أو قد عايش منه هاهنا رأفة، وسلما، ودعة، وحنوا، ولطفا، وسلما، وعفوا ونبلا، وسماحة، وطهارة، ونبلا من الخلق الحميد عاليا، وخبرا من السمت الحسن رفيعا سامقا.

ولكن عموميات الآيات، وإذ تحكي قصة هذا الموت، ويكأنه سنن رباني، على كل نفس، وإذ يعد هذا تسلية لكل نفس أيضا، وحين تعيش معانيها ومراميها، وهي إذ تتلمس ما توحيها، وإذ كان من ذلك هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تسرية أيضا عن أولاء الأصحاب الكرام البررة، ولما عاينوا بشرا، وكاسم من أسماء البشر، وأن نعم! وإنما كان عمله هو ذلكم الذي ينأى عنه كل البشر!

وقال الله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر ٣٠-٣١].

([1]) صحيح البخاري: ٣٦٨٢

وقال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥].

وها هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، يتلو، ويذكر، ويهدهد نفسه قبل غيره في مصاب الأمة، بل الكون بأسره، ويوم أن نزل بنبينا صلى الله عليه وسلم رسول ربه، وهو إذ بين يدي رحمته رسولا كريما، ونبيا رؤفا رحيما، وحين كان الناس ويكأنهم يسمعون هذه الآية أول مرة! وحين تلا الصديق قول ربنا سبحانه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

فعن عائشة أم المؤمنين: أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك، فقد متها. قال الزهري: وحدثني أبو سلمة، عن عبد الله بن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} إلى قوله {الشاكرين}، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها فأخبرني سعيد بن المسيب، أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات[١].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٤٥٢

وعن أيوب بن بشير أن رسول الله قال في مرضه أفيضوا علي من سبع قرب من سبع آبار شتى حتى أخرج فأعهد إلى الناس ففعلوا فخرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا لهم ثم قال يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال عليه السلام أيها الناس إن عبدا من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى وقال بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر فإني لا أعلم أحدا عندي أفضل في الصحبة منه[1].

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢٠١/٥. خلاصة حكم المحدث: مرسل له شواهد كثيرة.

الفصل الثالث

من خلافته إلى يوم وفاته

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الإبانة في عمل الولاية.

المبحث الثاني: النضر الأنيق في صحة بيعة أبي بكر الصديق!

المبحث الثالث: خطبة الولاية.

المبحث الرابع: لأنفذت جيش أسامة.

المبحث الخامس: السلام عليك أيها الأمير!

المبحث السادس: قتال المرتدين.

المبحث السابع: مزاعم القوم.

المبحث الثامن: من أمجاد العسكرية الإسلامية.

المبحث التاسع: مسألة التحريق بالنار.

المبحث العاشر: تقليد خالد بن الوليد.

المبحث الحادي عشر: استتابة طيء.

المبحث الثاني عشر: إن لك رحاء كرحاه، وحديثا لا تنساه.

المبحث الثالث عشر: مسألة التحريق بالنار.

المبحث الرابع عشر: معركة بزاخة.

المبحث الخامس عشر: عمل الشورى.

المبحث السادس عشر: امرأة تؤلب على سيف الله!

المبحث السابع عشر: سجاح بنت الحارث النصرانية.

المبحث الثامن عشر: قتل مالك بن نويرة.

المبحث التاسع عشر: فرية وردها.

المبحث التاسع عشر: فرية وردها.

المبحث العشرون: اجتهاد عمر الفاروق.

المبحث الواحد والعشرون: موقعة اليمامة.

المبحث الثاني والعشرون: علم نبوة ضاف.

المبحث الثالث والعشرون: جمع القرآن الكريم.

المبحث الرابع والعشرون: ردة أهل البحرين وبركة دعاء العلاء بن الحضرمي.

المبحث الخامس والعشرون: ما أثر بركات الأولياء؟

المبحث السادس والعشرون: إرسال جيش الفتح إلى العراق.

المبحث السابع والعشرون: وقعة الولجة.

المبحث الثامن والعشرون: موقعة أليس.

المبحث التاسع والعشرون: جواز التخريب لمصلحة راجحة.

المبحث الثلاثون: علم نبوة ضاف.

المبحث الواحد والثلاثون: معركة ذات العيون.

المبحث الثاني والثلاثون: فتح عين التمر.

المبحث الثالث والثلاثون: فتح دومة الجندل.

المبحث الرابع والثلاثون: فتح الحصيد والمضيح.

المبحث الخامس والثلاثون: أمة الحق ورعيل العدل!

المبحث السادس والثلاثون: وقعة الفراض.

المبحث السابع والثلاثون: فتح الشام.

المبحث الثامن والثلاثون: تحفيز القائد.

المبحث التاسع والثلاثون: أبو بكر يمشي ويزيد يركب!

المبحث الثلاثون: كيف كان خالد سيف الله المسلول؟

المبحث الواحد والثلاثون: خبر المثنى بن حارثة بالعراق.

المبحث الثاني والثلاثون: إني لأرجو أن أموت يومي هذا.

المبحث الأول: الإبانة في عمل الولاية[1].

عن جندب بن عبد الله: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك[2].

وهذا حديث صحيح رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوضح فيه مسائل عديدة، ولعل هذه المسائل هي التي كان قد طلب حتى يكتب للناس كتابا.

وهذا حرص هذا النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ودينها، وهذا خوفه صلى الله عليه وسلم وعلى هذه الأمة، أن تضل طريقها، وحين قد تركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وليس يضل عنها ومن بعد هذا البيان إلا هالك.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد بين فضيلة هذا الشيخ الذي اسمه أبو بكر رضي الله تعالى عنه! وحين كان قد بذل كل ما يملك من مال في سبيل الله تعالى ربه الحكيم المنان المتعال سبحانه، وكما أنه كان قد تعرض بذات نفسه، وعلى موت في سبيل الله تعالى كل مرة، وحين قد كان داعي ذلك قد تأكد في جانب الأصحاب والخلان الكرام البررة، وبما ليس يدع طرفة من عين أو رمشا من جفن، وإلا قد

---

(1) هذا المبحث مفاد من موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات للمؤلف: ج٥/٢١٠ - ٢١٣

(2) صحيح مسلم:٥٣٢

أبان لنا هذا الرجل من صدقه ما قد أنبأك عنه قول هذا الرسول عنه وكان قال: إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر!

فعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ؛ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر[1].

ويكأنه هذا هو أبو بكر! وأمامنا يوم الهجرة، وحين كان يتقدم النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو قوله يربنا مضرب مثل البذل والفناء والتضحية والجهاد والمنعة والذود عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم وحين قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما[2]؟!

وها هو يوم بدر، ومرافقا للنبي صلى الله عليه وسلم في عريشه، وليتلقى عنه أذى الناس يومه هذا! وهو إذ يمسك بتلابيبه صلى الله عليه وسلم رفقة وتضحية وبذلا آية اخرى!

---

(1) صحيح البخاري: ٣٩٠٤
(2) صحيح البخاري: ٣٦٥٣

وهذا صنيع قريش بهذا النبي صلى الله عليه وسلم وحين أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم} [غافر: ٢٨]. [١].

ويكأنه صلى الله عليه وسلم قد أوضح في هذا الحديث أنه؛ ومن موجب ما أنف، فلو كان متخذا من أمته خليلا، لاتخذ أبا بكر هذا خليلا؛ ولصحبته، ولمنته، ولفضله، ولصدقه، ولبذله أيضا.

ولكنه يبدو أنه قد مضت سنته تعالى ألا يتخذ هذا النبي صلى الله عليه وسلم من أحد من هذه الدنيا خليلا، ولأنه الله تعالى قد اصطفاه، وحين اتخذه خليلا؛ ومنه فليست تجتمع خلتان: وهذه إحداهما من الله تعالى، وهذه الأخرى من أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

ولكنه؛ وكيما نعلم فضيلة هذا أبي بكر الصديق، وحين نعلم أنه الله تعالى كان قد اتخذ إبراهيم خليلا، وموازاة بهذا النبي صلى الله عليه وسلم، وفيما لو كان قد اتخذه نبينا صلى الله عليه وسلم خليلا!

ولتستوي الخلتان، ولو من باب التسمية، ويكأن فارقا يظل باقيا، وحين كان اتخاذها من الله تعالى رب البشر، وهذه واحدة، ولما كان يمكن اتخاذها من أحد من أولاء هم البشر، وهذه الثانية، ولو كان هو هذا النبي العربي القرشي الأمي الحاشر العاقب الماحي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أبان حماية جناب التوحيد، وحين نص على حرمة اتخاذ القبور مساجد؛ ولأنه هذا من فعل اليهود والنصارى، وبالتالي فإن حماية هذا التوحيد، والأخذ بأسباب

---

(١) المرجع السابق: ٣٦٧

هذه الحماية؛ وسدا لذرائع الشرك، والانحراف، والزيغ، والضلال، فكان قوله صلى الله عليه وسلم! وبيانه في ذلك حاسما، وأيما حسم وحزم وصرامة!

ولكن التمحل، ومن بعد هذا البيان، ليعد اجتراء على الله تعالى!

ولكن هذا فضل أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وحين كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل إليه؛ أن يفوضه، وعلى ما فهم أهل العلم من رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى أنه صلى الله عليه وسلم قد أراد ذلك؛ وكيما لا يختلف عليه المسلمون، ومن بعد موته صلى الله عليه وسلم، وكيما لا يترك لخلاف آخر، قد ينم عن مسألة الاختيار والاستخلاف، ومن بعده صلى الله عليه وسلم.

وإلا أن هذه هي فضيلة هذا الرجل، وحين كان له ما له، ومن بذله، وكما أنف، ويكأنه كان الأحق؛ ولأنه كان الأصدق، ومن بعد هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ترك لنا إرثا في الاستخلاف عظيما، وحين راح إلى هذا أبي بكر، وها هو كان أمامه عمه العباس، أو ابن عمه عليٌّ رضي الله تعالى عنهما، وقد كان لهما خير وسبق فضل أيضا.

ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل هذا؛ وكيما لا يفهم أنه إرث، ومن بعده إرث آخر!

على أنه وحين تتوافر شروط الإمامة العظمى في عبد ما، فلا غرو أن الأمة هي صاحبة الحق الأصيل في تعيينه إماما لها، وبكل شفافية في مسألة الاختيار تلك.

ولكنه، وحين فعل ذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولأن أبا بكر كان للخير أسبق، وفي إعلان هام عام أيضا أن هذا الأمر لأهله، وحسبنا! ودون نظر إلى أية اعتبارات أخر أيضا! وحسبنا أيضا!

إن مسألة الاستخلاف أمانة في أعناق هذه الأمة، وهي إذ تضع قدميها، وحين كان إحداهما على طريق التقدم، والنهوض، والتطور، وهذا الذي يجعلها ألا تأخذ تستخلف إلا من ذي استحقاق، ومن دينه، وإن من دينه قوته، وإن من دينه أمانته، ولأن هذا احتكام إلى كتاب الله تعالى ربنا الحق الرحمن، وحين قد أقر ما قالته فتاة! وإذ لم تبلغ من العمر عتيا!

ولكنها هكذا هي مقتضيات الحكمة، والتوفيق، والإلهام، وحين يورثها الله تعالى من فضله على من يشاء من عباده، ولو كانت فتاة! وكما قال الله تعالى ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

ويكأنها أيضا، وحين تستخلف، وإنما كان ذلك لما قد تبدى لها من التزام أميرهم بنهج ربهم، وصراط بارئهم، وسنن نبيهم صلى الله عليه وسلم!

وإن هذه الأمة، وحين فعلها هذا، وتكون قد أخذت بنصاب التقوى، والتوفيق، والإلهام، وإنها وحين قد خالفت هكذا سنن ربها، وحينها لا تنتظر مدد السماء كثيرا! ولا عطاءها، ولا خيرها، ولا تلومن حينئذ إلا أنفسها! ولأنه الله تعالى قال ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩].

وإن من التقوى ألا يؤمَّرَ إلا من كان تقيا!

فأين أبو بكر؟

ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين كان قد اشتد به مرضه، وأمر أن يُصَلَّى بالناس، وإذ طلبوا من عمر الفاروق أن يصلي بهم؛ ولما لم يكن أبو بكر حاضرا، وإلا فإنهم أولاء الصحب الكرام البررة، الذين

يعلمون من هو أحق بالصلاة إمامةً، وعلى ما هو مبين في بابه، وإن من بابه أعلمهم بقراءة القرآن، ومن ثم فأعلمهم بالسنة، ومن ثم فالأكبر سنا.

ولعل هذا كله كان في حق أبي بكر أقوى وأعلى وأظهر، وبالتالي فقد كان اعتراضه صلى الله عليه وسلم على إمامة عمر؛ وكيما يكون الناس على سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، في إمامة صلاتهم، ولا يخرمها خارم، وكيما يظل سننا وهديا حسنا.

وهذا الذي جعل نبينا صلى الله عليه وسلم يتساءل عن أبي بكر، وكما أنف؛ ولأنه أحق بالإمامة ممن سواه، ولما أنف أيضا.

وإلا أن الذي نقف عنده، هو هذه السماحة التي كان قد تحلى بها الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، وحين علم باستخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر، ولما وقعت في نفسه موقعها الحميد؛ ولأنه يعلم مقصد هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولأنه بعلم هذا الأمر من نفسه أيضا.

ومنهما كان استقباله لهكذا أمر ذي رشد منه.

ولكن هذا شأن الصلاة، في هذا الدين، ولما كانت لها العدة، ويكأنها هكذا عدة!

ولكن هذا أيضا يقف بنا على هذه المكرمة لأبي بكر، ولما كان من أهلها أيضا.

فعن عبد الله بن زمعة: لما استعز برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عنده في نفر من المسلمين، دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا من يصلي للناس، فخرج عبد الله بن زمعة، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبا، فقلت: يا عمر، قم فصل بالناس، فتقدم فكبر، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه

وسلم صوته، وكان عمر رجلا مجهرا؛ قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون! يأبى الله ذلك والمسلمون! فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس[1].

إن أبا بكر رجل رقيق

ولكن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان رجلا أسيفا رقيقا، وهذا الذي جعل عائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم تخبره، وأنه رجل أسيف، ولكن هذا النبي جعل من هذا قاعدة هامة، وهي اعتبار الأحق بالإمامة، وبقطع النظر عن أي شيء آخر.

وبه فإن النظر في مصالح الأمة، معاشها ومعادها، هو المعتبر، وحين الولاية.

وأما أن الإمام أسيف رقيق، فإن هذه لتعد منقبة أخرى، ومنضافة إلى رصيده، من التقوى، والخوف، والوجل، بل إن ذلك لمن متطلبات الولاية، وحين شرطوا أن يكون الأمير صاحب ورع، وزهد، يردانه عن هوى، ويقدمانه إلى رشد، وهدى، وصلاح، وفلاح.

فعن عبد الله بن عمر: لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه قيل له في الصلاة، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء، قال: مروه فيصلي فعاودته، قال: مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف[2].

والله! ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ.

وهذا بعد نظر آخر، وإذ قد تميزت به عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وحين خشيت على والدها أبي بكر، وأن يتشاءم الناس به، وأول ما يرونه أمير صلاتهم، ومن دون رسول الله ﷺ!

([1])صحيح أبي داود: ٤٦٦٠
([2]) صحيح البخاري: ٦٨٢

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم يبين، وأن السياسة شيء، وعواطف الناس شيء آخر، ومنه فلا اعتبار لخشية عائشة هذه؛ ولأنها ولربما لم تكن من محلها؛ برهان أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرها على كذلكم مشاعر وأحاسيس، وبالتالي وكما أنف، فإن سياسة الدول، وإنما تكون في معزل عن هكذا عواطف وأحاسيس، وحين لم يؤيدها برهان من واقع تستند إليه، أو قد أشعر برهان بصدقه، وكما الحال من أن أبا بكر كان رقيقا.

المسؤولية الاعتبارية الإدارية

ولكن قوله صلى الله عليه وسلم: مروا أبا بكر فليصل بالناس. وهذا برهان أن أمر القائد، وباعتبار أنه هو المقرر، وبالتالي فإن المبلغ لهذا القرار، وإنما يكون بمثابة من يقرر أيضا.

وهذا فن إداري ممتاز، وحين يكون التفويض، وعلى نحو هكذا، فإن القرار المفوض فيه، وإنما ينسب إليه، لا إلى الجهة التي أصدرته، وهذا الذي يسمونه المسؤولية الاعتبارية مواجهة القرار الإداري!

غير أن هذا التشاؤم، وإنما ليس يؤخذ، وعلى ما هو معروف، ومن هذا الذي ضده الفأل الحسن!

وإنما هذا من باب رفع الحرج لا أكثر عن أبيها، وعنها، ومنه بالتالي؛ وكيما لا يقع في حفيظة الناس، أن هذا أبو بكر، أمير صلاتهم، لا نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم!

فعن أبي هريرة: لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة. فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبلي، تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟ فقال: فمن أعدى الأول[1]؟

([1]) صحيح البخاري: ٥٧١٧

المبحث الثاني: النضر الأنيق في صحة بيعة أبي بكر الصديق!

إن بيعة المسلمين يوم السقيفة لهذا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لتمثل عملا فريدا في حياة هذه الأمة، المباركة، الوسط، الحنيفية، السمحة، ويوم أن تحاملت على جراحها، واستعانت بربها على لملمة أوراقها؛ ولوفاة نبيها نبي الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه حدث، ويكفي فيه إظلام يثرب المدينة النبوية، وكما قد أنارت يوم مهاجره، وفي حدثين ينمان عن كيف كان هذا النبي نورا، وداعيا إلى الله تعالى، وسراجا منيرا.

ومن ثم كانت بيعة أبي بكر أيضا علامة فارقة ورغم هذا الجراح، وإلا أنها لم تثنهم، أو تحول بينهم وبين اختيار خليفة لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومنه بانت أهمية الراع،ي وللأمة كلها، وحين صنوان أمانها، ونظامها، وعدلها، وحربها، وسلمها، ولما كانت ومن بين يديه تنبع عيون حفظ دينها، وسلامة دنياها، ومن ثم يكون ومن بين عقده هذا الذي يقوم به أمر الناس: معاشهم ومعادهم معا.

وأعالجه في أربع مسائل:

المسألة الأولى: فلا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أنْ يَقُولَ: إنَّما كَانَتْ بَيْعَةُ أبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وتَمَّتْ، ألَا وإنَّهَا قدْ كَانَتْ كَذلكَ، ولَكِنَّ اللَّهَ وقَى شَرَّهَا، وليسَ مِنكُم مَن تُقْطَعُ الأعْنَاقُ إلَيْهِ مِثْلُ أبِي بَكْرٍ

وهذا هو قول عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، تقريرا للحق وبه إقرارا أيضا، وحين تقف منه على هذا الثناء على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، صاحب هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أيضا كان ذلكم الولي، صاحب لواء حجه عامه التاسع من هجرته، وحين أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب إليه؛ ليعلن على الناس البراءة من المشركين، ويوم الحج الأكبر، وأن الله تعالى

بريء من المشركين ورسوله، وفي إعلان عام، أن هذا الدين، وإنما كانت هذه البراءة من الشرك والمشركين نظامه، ومن معنى هذه الشهادة، شهادة التوحيد الخالدة، وهي تلك التي شهدها الناس أيضا. عقدا مبرما وبينهم وبين ربهم ألا معبود بحق سواه وأن هذا البراء وإنما هو منها، ومن معناها.

وفي لفتة خلقية فريدة، وحين يسأل أبو بكر عليا سؤاله هذا: أأمير أم مأمور؟ وليرد عليه أخوه عليٌّ ردا جميلا عليلا، وجوابا شريفا نبيلا: وحين قال: بل مأمور. ومن لمحة بر وولاء، ومن نظرة حنو ووفاء. وإنما تحكي صورة الولاء والمحبة، وإنما تقصص رواية الصفاء والنقاء والمودة.

ويكأنهم، ومنه أفادوا الاختيار، وإن لم يكن تصريحا، وإنما أخذوه، ويكأنه منه صلى الله عليه وسلم كان تلميحا، وهذه من مناقب هذه الأمة، وحين تستشرف إيماءات الخير والهدى من راعيها، ولما تستكنه شارات الاجتباء والاصطفاء من واليها!

وإنما كانت بيعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلتة، وحين لم يبايعه كل المسلمين يوم السقيفة! وهذا شأن ليس فوق التصور من شيء، وإنما لم يذكر التاريخ يوما، أن أمة قد بايعت أميرها، وعن بيعة أجمعها، وإنما جرت العادة أولا أن يقول أهل الحل والعقد فيها كلمتهم، ومن ثم يطرح أمر البيعة العامة، حضرها أم لم يحضرها الجميع، وبايع الناس كلهم أو جلهم، فإن هذا ليس يقدح في الاختيار، ولئلا تكون فتنة، وهذا الذي أشار إليه عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، وحين كان من فضله تعالى أن تجتمع كلمة المسلمين على أبي بكر، ومن بعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يذكره التاريخ لهذه الأمة.

ولكن البراعة، وحين يقف الغائبون، وعلى اختيار المبايعين من الحاضرين، ويكأنهم يلتزمون، وبما قد حرره إخوانهم من قبل!

ويكأنهم، وكما كان العهد بهذه الأمة وحين ليست تقطع ثلة منها سبيلا أو واديا، وإلا كان الباقون معهم! دينا واحدا، ومنهجا واحدا، وسبيلا واحدا، وأجرا نبيلا، وجزاء فضيلا!

ويكأنهم، هم أولاء الذين حكى عنهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وحين أثنى عليهم رسولهم، وحين قال جابر بن عبدالله قوله المجيد الخالد هذا: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة، فقال: إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا، إلا كانوا معكم؛ حبسهم المرض. وفي رواية: إلا شركوكم في الأجر[1].

وهذه بلا شك من أسباب التوافق والائتلاف، وبها يحسم كل أمر موجب للشقاق والاختلاف.

ولم لا نقول: إنها كانت فلتة، ومن معنى أن الله تعالى قد أجمع عليه قلوب المؤمنين، ومن الحاضرين ومن الغائبين؟! ولعل هذا أبلغ قيلا، وأبين سبيلا!

وعلى أن أبا بكر هذا كان أهلا لمثل هذه البيعة المباركة، وإذ من يضاهي أبا بكر، أو قريبا منه، ومن بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟! وهذه شهادة عمر الفاروق، ومن قبل كانت شهادة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومن فعل أبي بكر يوم الهجرة، ومن قبله يوم الإسراء والمعراج، ويوم بدر، ويوم الحج، يوم إعلان البراءة من المشركين، وأن الله بريء من المشركين ورسوله، وسائر أيام هذه الدعوة المباركة، وهذا نص القرآن الحكيم، الذكر المبين فيه، وحين قال الله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

([1]) صحيح مسلم: ١٩١١

وقد مر بنا طرف من مناقب هذا الصديق الوفي الأبي، وإبان هذه السيرة النبوية المباركة، وهو الأمر الذي يعوزه بحث مستقل، يناسب مقام هذا البذل، وهذا الفناء، لهذا الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ومع شكر وثناء، ولكل من أدلي في هذا المقام دلوا!

أما عن هذا الذي حدث يوم السقيفة، فإنه لأمر صحي تماما، وأن يقول الأنصار كلمتهم؛ ولأنهم هم الذين كان لهم فضل الإجارة والنصرة لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانت لهم وقفاتهم المجيدة، ويوم العقبتين خير شاهد، ويوم هوازن ليس بعيدا أمده، وحين كانوا من الأدب الجم الرفيع، والخلق الحسن الحميد، وها هم يقفون على هدي نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويخرجون من لعاعة الدنيا، وعلى نظم هذا الحديث الذي بين أيدينا- وكما مررنا به آنفا في حينه أيضا- فإنه: لَمَّا كانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، التَقَى هَوَازِنُ ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَشَرَةُ آلَافٍ والطُّلَقَاءُ، فأدْبَرُوا، قالَ: يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، قالوا: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ وسَعْدَيْكَ، لَبَّيْكَ نَحْنُ بيْنَ يَدَيْكَ، فَنَزَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: أنَا عبدُ اللَّهِ ورَسولُهُ. فَانْهَزَمَ المُشْرِكُونَ، فأعْطَى الطُّلَقَاءَ والمُهَاجِرِينَ ولَمْ يُعْطِ الأنْصَارَ شيئًا، فَقالوا، فَدَعَاهُمْ، فأدْخَلَهُمْ في قُبَّةٍ، فَقالَ: أمَا تَرْضَوْنَ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وتَذْهَبُونَ برَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فَقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لو سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا، وسَلَكَتِ الأنْصَارُ شِعْبًا؛ لَاخْتَرْتُ شِعْبَ الأنْصَارِ[1].

وأولاء الأخيار هم الذين أثنى عليهم ربهم، ومن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

([1]) صحيح البخاري: ٤٣٣٣

ولكن المهاجرين أيضا، وقد كانت لهم كلمتهم، وحين هاجروا، وتركوا الديار والأموال؛ حسبة لله تعالى ربهم الحق المبين. وحين قد تنزل فيهم قرآن كريم، ومن قوله تعالى- وكما أنف من حينه أيضا- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

ولكن وقفة أبي بكر أسكنت، وطمأنت، وأطفأت، ومهدت، وأرضت القوم أجمعين، وحين تكلم، وذكر، ومن لين قوله، ومن حلم فؤاده، وليس فظا غليظ القلب، وحين أوقف الناس على أمر النبوة، وأن الخلفاء من قريش، وأن يقف الناس، منقادين، مسلِّمين، وقافين، وبه توأد وتطفأ شهب الفتنة، وليسكت المهاجرون؛ ومن رضا، وليصمت الأنصار؛ ومن قبول، ومن حيث كان هذا هو هدي نبيهم صلى الله عليه وسلم، وحين ذكرهم به أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وحين قال هذا النبي صلى الله عليه وسلم: الأئمة من قريش، ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن استحكموا عدلوا، وإن عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس، أجمعين، لا يقبل منه صرف، ولا عدل[١].

وبه يخرج كل قول، وعليه يقوم أمر خلافة النبوة، ويكفي بهذا التذكير خروج من فتنة، كان يمكن لها أن تقوم، وأن تشرئب لها الأعناق، وحين كان من قول واحد، هو ذاك قول قَائِلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ، وعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ؛ مِنَّا أَمِيرٌ، ومِنكُم أَمِيرٌ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ! ولكن الله تعالى وقى شرها، وكما قال عمر الفاروق، وهو الأمر الذي يوقف عنده أيضا، ومحاولة إغلاق باب الفتنة، وبكل وجه ممكن؛ ولأن شررها، ولو تطاير، فلسوف ينال الأمة كلها، ومن حره، ولسوف يمسسها أجمعها، ومن شره، ويكأن الله تعالى يقيض حكماء، أتقياء، أنقياء، أصفياء، ومن شاكلة هذين الرجلين:

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٧٥٨

الصديق أبوبكر، والفاروق عمر رضي الله تعالى عنهما، ومن غيرهما أيضا، ولأن هذه الأمة ولادة، وبكل وجهة خير ممكن.

على أن بيعة أبي بكر، وإنما أفرزت عن هكذا معدن أمة رضيت، واطمأنت، ووقفت عند هدي نبيها صلى الله عليه وسلم، ولم تسابقه شيئا، وكما أنها لم تتخلف عنه شيئا أيضا.

وإن هذه الأمة، وحين قد أخذت بالشورى، مذهبا لبيعتها، وإنما كان من هكذا مسلك أن ترضى النفوس، وأن تقف، ومن ذات نفسها حائط صد ومنع؛ ولحماية صرح توليتها وبيعتها وإمارتها، وتحصين أمر اختيارها وكلمتها، وبدل أن يكون الأمر غصبا، فيكثر الهرج والمرج، والأخذ والرد، ولا يمكن لهكذا أمة أن تقوم لها قائمة بين الأمم، وحين تنفك من قيد هيبتها الذمم، ولا تصغى إليها أفئدة الناس؛ لا احتراما لها، ولا توقيرا!

وعلى أن بيعة أبي بكر هذه، وإنما كانت برا بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت علما على نبوته صلى الله عليه وسلم أيضا؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». ولأنه قد تمت بيعته، وعلى رضا، وعلى إجماع من كل المؤمنين، المهاجرين منهم والأنصار، وإن بدت بعض أمور، ليس يخلو منها صف، وكما أنف، والنادر لا حكم له.

فعن عائشة أم المؤمنين: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: ادعي لي أبا بكر -أباك- وأخاك؛ حتى أكتب كتابا؛ فإني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر[1].

([1]) صحيح مسلم: ٢٣٨٧

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: كنت أقرئ رجالا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب، في آخر حجة حجها، إذ رجع إلي عبد الرحمن فقال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان؟ يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، فو الله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر، ثم قال: إني -إن شاء الله- لقائم العشية في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم. قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم؛ فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة؛ فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله -إن شاء الله- لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زاغت الشمس؛ حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسا إلى ركن المنبر، فجلست حوله تمس ركبتي ركبته، فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب، فلما رأيته مقبلا، قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف، فأنكر علي وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله؟! فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذنون قام، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب علي: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله،

والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف. ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم؛ فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو: إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ألا ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله. ثم إنه بلغني أن قائلا منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلانا، فلا يغترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين، فلا يبايع هو ولا الذي بايعه؛ تغرة أن يقتلا، وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم: أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم، لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالأ عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك، فلما جلسنا قليلا تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم، قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري، إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت؛ فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش؛ هم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين

الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك من إثم؛ أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول إلي نفسي عند الموت شيئا لا أجده الآن. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب؛ منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش. فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار. ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة. قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه؛ تغرة أن يقتلا[1].

المسألة الثانية: حكم الاستخلاف

وعلى أن مسألة الاستخلاف، في إمامة الأمير، قد جرى في شأن حكمها كلام، وأنه ﷺ، وإن كان لم يستخلف أبا بكر صراحة، وإن دلت قرائن على هذا الاستخلاف، وإن بقيت تحمل مضمونها، لا تصريحها، وعلى رأي القائلين به.

وكان من أدلة هذا الفريق ما أنف، ومن أنه ﷺ وإن كان قد استخلف أبا بكر على الصلاة، وحين مرض مرضه الذي كان قد توفي فيه ﷺ. وإلا أن ذلك يعد احتمالا لا صراحة فيه، أو أنه كان خاصا بالاستخلاف في الصلاة.

([1]) صحيح البخاري: ٦٨٣٠

والنبي ﷺ، وإذ كان يعلم تعلق ذلك بمصالح الأمة العليا. والحال كذلك فليس معقولا، ومن حق هذا النبي ﷺ أن يترك الأمة، ويعوزها بيان واف كاف شاف. ولا سيما قول أبي ذر رضي الله تعالى عنه: لقدْ تَرَكَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما يُحَرِّكُ طائِرٌ جَنَاحَيْهِ في السماءِ إلَّا ذَكَّرَنا منه عِلْمًا[1]. وعن سلمان الفارسي أنه قيل له: قد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة قال: فقال: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع، أو بعظم[2].

وأقول: ومنه فإنه ﷺ ليس يترك بابا، ومن مثل ذلك أهمية، وإلا نص عليه صراحة، فدل عدم التصريح بالاستخلاف على جوازه لا الأمر به. وإنما كان ذلك كذلك؛ ولأنه لم يأت نهي صريح أيضا عن الاستخلاف، ومنضافا إليه ذلكم الاحتمال الذي يحمله الاستخلاف في الصلاة، وكذا ومسألة الكتاب، وما راح إليه بعضهم، ومن موجب ذلك.

فعن عائشة أم المؤمنين: لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلال يوذنه بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر يصلي بالناس فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، قال: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه خفة، فقام يهادى بين رجلين، ورجلاه يخطان في الأرض، حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حسه، ذهب أبو بكر يتأخر، فأومأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائما، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي قاعدا، يقتدي أبو

---

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٢٦٦/٨. توضيح حكم المحدث: إسناده ضعيف.
(2) صحيح مسلم: ٢٦٢

بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس مقتدون بصلاة أبي بكر رضي الله عنه.[1]. ومنه حديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين، الآتي الذكر حالا، ومن قول أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله تعالى: وإنْ أتْرُكْ فقَدْ تَرَكَ مَن هو خَيْرٌ مِنِّي، رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وإن هذا الكتاب الذي أشار إلى كتابته هذا النبي محمد ﷺ، وإن ظل أيضا طي الاحتمال؛ ولأننا لم نعرف طبيعة هذا الكتاب، ومن حيث لم ينص على محتواه صراحة، وكما أنف، ولا سيما أن الأمر متعلق بمصالح الأمة العليا، ومن أعلاها مسألة الاستخلاف هذه، ولأن عليها مدار الائتلاف، والاختلاف. وما كان هذا النبي ﷺ ليترك أمته، وإلا على بينة من أمرها، ولم يترها شيئا!

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما حضر النبي صلى الله عليه وسلم قال، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال: هلم أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده، قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله، واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قوموا عني. قال عبيد الله، فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[2].

وقالت عائشة: وا رأساه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك لو كان وأنا حي، فأستغفر لك وأدعو لك. فقالت عائشة: وا ثكلياه! والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك، لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أنا وا رأساه، لقد هممت -أو أردت- أن

---

(1) صحيح البخاري: ٧١٣
(2) المرجع السابق: ٧٣٦٦

أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد؛ أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون [١].

وعلى أن احتمالا- ولو من وجه- أن يكون هذا الكتاب، ومن شاكلة ما جاء عن أبي حسان، أن عليا رضي الله عنه كان يأمر بالأمر فيؤتى فيقال قد فعلنا كذا وكذا فيقول: صدق الله ورسوله فقال له الأشتر إن هذا الذي تقول قد تفشى في الناس أفشيء عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قال علي رضي الله عنه: ما عهد إلي رسول الله شيئا خاصا دون الناس إلا شيئا سمعته منه صلى الله عليه وسلم في الصحيفة في قراب سيفي فما زالوا به حتى أخرج الصحيفة فإذا فيها من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل[٢]. وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: بيان أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يستخلف أحدا يلي الأمر بعده[٣].

وأخرج الإمام الحاكم في المستدرك، وصححه الإمام البيهقي في الدلائل عن أبي وائل قال: قيل لعلي: ألا تستخلف علينا؟ قال: ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستخلف، و لكن إن يرد الله بالناس خيرا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم[٤].

وعلى أنه يمكن القول بجواز هذا الاستخلاف؛ وكما أنف؛ ومما صحت روايته عن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله تعالى، وحين قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني: أبا بكر.

---

(١) المرجع السابق: ٥٦٦٦
(٢) السنة لعبد الله بن أحمد: ٢٤٠/٣
(٣) تاريخ الخلفاء، السيوطي: ط السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ت: محمد محي الدين عبد الحميد: ١٤/١
(٤) المرجع السابق: ١٤/١

فعن عبد الله بن عمر: قيل لعمر ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليه فقال: راغب راهب، وددت أني نجوت منها كفافا، لا لي ولا علي، لا أتحملها حيا ولا ميتا[1].

ووجه الاستدلال قوله رضي الله تعالى عنه: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني: أبا بكر.

ولعل قولا وسطا بجواز أن يستخلف الإمام، وجواز ألا يستخلف.

وعليه يحمل قوله ﷺ: ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر. وحال توجيهه- احتمالا- على محمل جواز الاستخلاف، وكما قال به قائلون.

ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبي بكر، وظهر برهان قوله عليه السلام: " يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ". وظهر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينص على الخلافة عينا لاحد من الناس، لا لأبي بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعلي كما يقوله طائفة من الرافضة. ولكن أشار إشارة! قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق كما قدمنا وسنذكره. ولله الحمد كما ثبت في الصحيحين من حيث هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب لما طعن قيل له إلا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني. يعني - أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، يعني – رسول الله صلى الله عليه وسلم -. قال ابن عمر: فعرفت حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه غير مستخلف. وقال سفيان الثوري عن عمرو بن قيس عن عمرو بن سفيان. قال: لما ظهر علي على الناس. قال: يا أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعهد إلينا في هذه الامارة شيئا، حتى رأينا من الرأي أن يستخلف أبا بكر فأقام

([1]) صحيح البخاري: ٧٢١٨

واستقام حتى مضى لسبيله، ثم إن أبا بكر رأى من الرأي أن يستخلف عمر فأقام واستقام حتى مضى لسبيله - أو قال حتى ضرب الدين بجرانه[١].

وقال: وقد أجمع المسلمون على الاستخلاف فيمن يقيم لهم أمر دينهم ودنياهم والصلاة أعظم الدين[٢].

المسألة الثالثة: فرية الإيصاء لعلي بالخلافة

وأما أنه صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بالخلافة، وعلى قول الشيعة الإمامية ذلك، فإنه ليس هناك ما يدل عليه، لا تصريحا ولا تلميحا، بل على خلافه. ولأنهم: ذكروا عند عائشة أن عليا رضي الله عنهما كان وصيا، فقالت: متى أوصى إليه وقد كنت مسندته إلى صدري؟! -أو قالت: حجري- فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصى إليه؟[٣]!

واستدلت الشيعة بأحاديث ضعيفة أو موضوعة، وقد أضربت عنها خشية الإطالة، واكتفيت بما أنف من الصحيح، وفيها غنية، والحمد لله.

والصحيح لا يعارض ولا يحاج بضعيف أو موضوع.

على أن الأمر موجز، وعلى أنه مختصر، وإنما كان يكفيه هذا الإيجاز، وإنما كان يغنيه ويثريه هذا الاختصار أيضا، وحينما تسلك النوايا سبيل الحق والقسطاس المستقيم.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٢٧٠
(٢) الاستذكار، ابن عبد البر: ٢٨٥/١
(٣) صحيح البخاري: ٢٧٤١

وذلك؛ لأن الناس قد اتبعوا ما ليس دليلا لصالح قضيتهم! وجعلوا منه سندا! وهو في الحقيقة سند ضد مسلكهم هذا. ولدى قليل تأمل، لا كثير منه!

وانظر كيف اتخذوا من إرسال النبي صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب لإعلان البراءة من المشركين يوم الحج الأكبر برهانا على الوصية؟! وقد فات الناس أن أمير الحج كان أبو بكر! وهذا عليٌّ كان خير خلف لخير سلف، وإذ كان الأولى أن ينظروا في إمارة الحج، وهي مقام عال إدارة، وإنما كان، وكما سلف هذا الأدب الجم الحسن الرفيع بين الصحابيين: أبي بكر أمير الحج، وعلي بن أبي طالب مؤذن الناس في الحج أن الله بريء من المشركين ورسوله !

وها هو هذا الذي أنف، ومن قول أبي بكر: أمير أم مأمور؟ ومن رد علي: بل مأمور! وماذا هم الناس قائلون أكثر من قولنا: قلوبا بعضها عند بعضها البعض، لحمة واحدة، وآصرة علت فوق التراب وجواذبه، وسمت على السمو نفسه وعوالمه ونفائسه!

وبه دل على أن الناس وإنما يصيدون في ماء عكر!

وإنما كان من سوء الطوية، وحين كان من شينه هكذا مسلك، هو ذاك الإعراض عن أحاديث جاءتنا من طرق غير طريق علي، ومنه كان إعراض القوم عن الكتب الستة؛ ومن سبب أنها، ومن أغلبها من طريق غير طريق علي! وإذ ليس يعد هذا إنصافا، لا من طريق علمي سديد، ولا من استدلال عقلي رشيد، وإلا أن محصلة مسلكهم هذا هو إنزال الدين كله من القلوب، ومن النفوس، وحين كان يعني ذلك هو التحلل من ربقته، ومن حيث قد تحلل الناس من ربقة أحاديث قد جاءتنا، ومن غير طريق علي رضي الله تعالى عنه!

المسألة الرابعة: إثبات بيعة علي لأبي بكر!

وأما عن بيعة علي لأبي بكر، وإن الناس قد اتخذوا منها شماعة لمأربهم هذا! وإذ ليس فيها ما يعد دليلا على إيصاء أو عدمه بالكلية، بل عكسه تماما؛ وذلك من وجوه:

الوجه الأول: وحين قد كان من بادئ الأمر أخذ ورد من عليٍّ، ومن غيره، في هكذا مسألة، وإفراد عليٍّ بها، وبرهانا على أحقيته، يعوزه دليل فوق هذا! وإلا كان تفلتا من الربقة، وإلا عد تحللا من التبعة! وإلا كان تعديا على أصول البحث العلمي الرشيد، ومنه:

الوجه الثاني: وإذ لم تسدد سهام الناس، إلا وأمام عليٍّ! ووقت أن كان غيره قد رأى غيره! ومن فعل الأنصار، ولما صار الناس، ومن بعد ذلك لحمة واحدة! ومنه:

الوجه الثالث: ولما كان عليٌّ، وعلى ما قالوا لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاة فاطمة رضي الله تعالى عنها! ولعل هذا أيضا، ومما كان حاصله الكلام من مسألة الإرث، وكما أنف علاجه في حينه، ويكأن عليا، وأن نعم كان قد قال قولا، وإلا أنه لم يسلك سبيلا غير سبيل المؤمنين، في اتباع الرجل أبي بكر، ولم يتخذ حزبا مناوئا، ولم يسلك شعبا مخالفا، وكان به بصيرا، عاقلا، مسددا، وما للقوم هكذا يتكلفون، ومما لم يكلفوه لا شرعا ولا عقلا؟! ومنه:

الوجه الرابع: ولم لانرد رواية مبايعته أبا بكر، وإلا بعد وفاة فاطمة، وأمامنا رواية أخرى، مقتضاها أنه بايع أبا بكر في اليوم الثاني ليوم السقيفة هذا، وما كان قد حدث فيه؟!

عن أبي سعيد قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام طباء الأنصار، فجعل منهم من يقول: يا معشر المهاجرين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل رجلا منكم قرن معه رجلا منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان منا ومنكم، قال: وتتابعت خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين، وإنما يكون الإمام من المهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أبو بكر فقال: جزاكم الله خيرا من حي يا معشر الأنصار وثبت قائلكم، أم والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم، ثم أخذ زيد بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، قال: فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير عليا، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به. فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين فقال: لا تثريب يا خلفية رسول الله صلى الله عليه) وسلم، فبايعه، ثم لم ير الزبير، فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايع[1]. ومنه:

الوجه الخامس: والغرابة! هو ذاك التركيز على عليٍّ! وقد كان معه الزبير بن العوام! أم أن المقصود هو اللعب على ساق قرابته، أو أن المستهدف هو الضرب على وتر صهارته؟!

عن موسى بن عقبة عن سعد بن إبراهيم قال: حدثني إبراهيم بن عوف أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه: و أن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم و قال: و الله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت فيها راغبا ولا سألتها الله عز وجل في سر وعلانية ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الإمارة من راحة ولكن قلدت أمرا عظيما مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز و جل ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم فقبل المهاجرون منه ما قال وما إعتذر به قال علي رضي الله عنه والزبير: ما غضبنا إلا لأنا قد أخرنا عن المشاورة وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم إنه لصاحب الغار وثاني

([1]) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٣ / ١٠

إثنين، وإنا لنعلم بشرفه، وكبره، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس و هو حي[1].

ومنه:

الوجه السادس: وهذا الذي جعل الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى يذهب إلى احتمال بيعة عليٍّ مرتين، وهو ما يزيد الرضا رضاءين اثنين! ومنه:

الوجه السابع: وأما عن عدم حضور علي يوم السقيفة، و كذا الزبير، ولم إذًا الكلام حول عليّ دون الزبير؟! ولم لا ننظر لهكذا عمل جليل آخر، كان قد قام به عليٌّ، وهو انشغاله بتجهيز نبي الأمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم؟! وهذا برهان آخر أن الناس كانوا موزعي الأعمال، ولعدم تفويت مصالح الأمة، وحين كانت مصلحتاها يومئذ هما: تجهيز النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذا مسألة الخلافة. وانشغال فريق في إحداهما لا ينفي عنه الإقرار بالأخرى، وما قد جرى فيها! وهذا استدلال عقلي محض! ومنه:

الوجه الثامن: إقراره بفضله، وتفرده بذكر شمائله! بل وإذعانه لحق! وقال عليٌّ: ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخبره، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي بالناس وهو حي. إسناد جيد[2]. بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ثم مات وهو ابن ثلاث وستين.

على أنه ﷺ كان قد توعك ثلاثة عشر يوما، واشتكى مرضه، وفيه جواز إظهار ما ألم بالعبد، ومن بين أهله؛ وكيما يمرضوه.

---

(1) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠: حديث رقم: ٤٤٢٢، ٣/٧٠. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٢٧٠

فعن محمد بن قيس قال اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر يوما فكان إذا وجد خفة صلى وإذا ثقل صلى أبو بكر [1].

ويكأنه صلى الله عليه وسلم ولما كان قد اشتد به وجعه، وكانت منه هذه الحمى، وكما قد سبق بيانه، ومن حينه في هذه السيرة النبوية المباركة. وبيان اشتداد أمرها معه؛ برهان اغتساله بالماء أربع مرات؛ ولأنه: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بلى، ثقل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لي ماء في المخضب. قالت: ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال صلى الله عليه وسلم: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب. قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: ضعوا لي ماء في المخضب، فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد، ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلا رقيقا -: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين -أحدهما العباس- لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قال: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم، والناس بصلاة أبي بكر، والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد، قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: هات،

([1]) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ / ١٨١

فعرضت عليه حديثها، فما أنكر منه شيئا غير أنه قال: أسمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

وهذه قيمة الصلاة في هذا الدين؛ ولأنه لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة.

عن المسورِ بنِ المخرمةِ و ابنِ عباسٍ: أنهما دخلا على عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ حين طُعِنَ فقال: الصلاةَ، فقال: إنَّهُ لا حظَّ لأحدٍ في الإسلامِ أضاع الصلاةَ "، فصلى وجُرْحُه يشعبُ دمًا، رضيَ اللهُ عنهُ[٢].

بره بالنبي صلى الله عليه وسلم

فعن أنس بن مالك: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[٣].

المبحث الثالث: خطبة الولاية

ومرة أخري فإن هذا ثناء قلوب صافية على أصحابها، ومن كمثل ثناء عمر الفاروق على أخيه ثاني اثنين.

وهذا منهج أبي بكر ومن خطوطه العريضة وحين تمثلت في:

---

(١) صحيح البخاري: ٦٨٧

(٢) الإيمان لابن أبي شيبة، الألباني: ١٠٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) صحيح مسلم: ٢٤٥٤

١- قبوله بالولاية ومن بعد عقدها له أيضا.

٢- ضرورة البيعة؛ وإذ منها يتحلى الناس بالطاعة، لما كان فواتها تبرم الناس عن واليها!

٣- تواضعه، وأنه ليس من خيرية له على أحد!

٤- طلبه المشورة والإعانة، والأخذ على يده، والربت على صدره! في رسالة إلى الأمراء ومنهج إلى الرؤساء.

٥- وقوفه جانب العدل والنصفة؛ ولأنه بإقامة العدل يسود الأمن، ودونه يحل الجور والاضطراب.

٦- عنايته بأمر الجهاد؛ وأنه به فلاح الناس، وأنه وحين فواته يكون حرمانهم.

فعن أنس بن مالك قال لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر وقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهدا عهدها إلي رسول الله ولكني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا يقول يكون آخرنا والله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له وأن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1].

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢١٨/٥، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض

وهذا اختياره؛ ومن حديث نبيه، وألا يدفن نبي إلا حيث قبضه ربه. وإذ لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ما نسيته، قال: ما قبض الله نبيا إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه؛ فدفنوه في موضع فراشه ([1]).

المبحث الرابع: لأنفذت جيش أسامة

وهذا عهد خير سلف لخير خلف، وحين عزم الناس على ابي بكر إنفاذ جيش أسامة بن زيد، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين تطاولت أعناق يهود والنصارى وطوائف من العرب، ومن بعد موت هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وظنا منهم أنهم يمكنهم أن ينالوا ولو شيئا يشفون به غليلهم، وحين رأوا من موته صلى الله عليه وسلم فرصة، ويكأنهم حسبوا أن الناس لهم سيسمعون، وما علموا أن نبيهم صلى الله عليه وسلم وتوا قد لقي ربه، وإذ ترك رجالا مغاوير، يصهلون بحقهم وجه عدو الله وعدوهم.

وحين راح الناس إلى أبي بكر؛ يتدفعون به خطرا داهما، ومرضا قد اشرأبت أعناق ذويه، ومن هوانهم، ومن ضعفهم، ومن خورهم.

وإلا أن هذا أبو بكر، ولما قد وقف وقفتهم.

وحين كان من عهده صلى الله عليه وسلم أن قلد جيشا بقيادة أسامة بن زيد، لفتح بلاد الشام، أو استكمال فتحها.

([1]) صحيح الترمذي، الألباني: ١٠١٨

وها هم وإذ يهمهم أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعلاوة على ما قد رأوه، ومن حين اقترب قطاف رؤوس أينعت!

وهذا الذي كان منه: استعمال النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه إلى الشام - وكان قد ضرب البعث على أهل المدينة ومن حولها وفيهم عمر بن الخطاب، فتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبتهم وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء، يعنون جيش أسامة، جند المسلمين، والعرب _ على ما تري _ قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم. فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف. فخرجوا كما أمرهم، وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسايح حول قبائلهم وهم قليل[1].

وَجَلُ أسامة: وحين أرسل عمر الفاروق إلى أبي بكر، وأن يرجع هو ومن معه؛ خشية على هذا الإمام الجديد، ومن غدرة!

تواضع عمر: ولما كان جنديا من جنود جيس أسامة هذا! وحين أرسله إلى أبي بكر ومما أنف؛ حرصا على حياة القائد الجديد، وخشية أن يكون هدفا، ولو محتملا لأعداء الملة، وأولياء إبليس!

(1) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ٣٣٤

فحين خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب - وكان معه في جيشه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال: إن معي وجوه الناس وجئتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون([1]).

طلب عزل أسامة: ولأنه كان من نظر الأنصار صغيرا، وأنه ولئن ولاه النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا أنه كان سوف يرعاه، ومن تتبعه، ومن توجيهه، ومن ثم رأوا ومن موت النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما أصبحوا يخشون على هذه العصبة المؤمنة المتكونة حديثا، أن تنال، ومن عدو الله وعدوها، ولا سيما أن أسامة كان صغيرا، ومما أنف.

وإلا أنه قد فات الأنصار أنه هذه الأمة أمة مرحومة، ومن رحمة ربها بها أنه وإن تولى قيادة جيشها أسامة بن زيد، هو هذا الصغير، وإلا أنه ولسوف يوفق الله تعالى أبا بكر، أن يقوم على المهمة خير قيام، وإن خشي الأنصار، وإن كانت خشيتهم ولها من وجه.

فعن الحسن البصري: أن أبا بكر لما صمم على تجهيز جيش أسامة قال بعض الأنصار لعمر: قل له فليؤمر علينا غير أسامة، فذكر له عمر ذلك، فيقال: إنه أخذ بلحيته وقال: ثكلتك أمك يا بن الخطاب، أؤمر غير أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]؟

المبحث الخامس: السلام عليك أيها الأمير!

وهذه مسؤولية القائد، وحين تمثلت في قيام الصديق أبي بكر على تفقد الجيش، ومن سلامة الخطط المعدة سلفا، ثم إنه شحذ لطاقات الجند المغاوير، وحين يتوسطهم العام للقوات المسلحة، وهو هنا أسامة بن زيد، وفضلا عن القائد الأعلى للقوات المسلحة أيضا، وهو هنا أبو بكر الصديق.

([1]) المرجع السابق: ج ٢ / ٣٣٤

([2]) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٦ / ٣٣٦

ولعل إشارة إلى هذا الأدب السامي العالي، وحين استأذن الصديق أبو بكر أسامة أن يستطلق منه عمر الفاروق! نيابة عن هكذا قيمة القائد، وأهميته في سلم وقواعد الإدارة العسكرية العظمى، لهكذا الحكيم أبي بكر!

ومنه هو هذا التواضع والرضا، ولما يقبل الفاروق عمر أن يكون جنديا مأمورا، ومن أسامة! وكيف لا وهذه أمة كان علو شأنها؛ وإنما جاء ومن اهتمامها برفعة دينها، ومن ثم يكون كل شيء قد هان؛ وإذ هي في طريقها لإعمال هذا الهدف الأسمى، وإذ يستوي لدى الفرد فيها أن يكون في المقدمة، أو أن يكون في الساقة! ولحديث: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع[1].

وهذا الذي كان من عمر الفاروق، أن قلد أسامة إمارته، وحين كان وكلما لقيه أن يقول: السلام عليك أيها الأمير!

وهذا تواضع أبي بكر، وحين عرض عليه أسامة، ومن جد، أن ينزل عن ركوبته؛ وليركب هو أبو بكر!

ولكنه يذعن في إمهار أسامة قيادته، ورفعا لقيمته، وشحذا لهمته، وحين يأبى أن يركب، وعنه بدلا!

ولكنه أيضا هو هذا التواضع، ومن شقه الآخر لدى عبد الرحمن بن عوف، وحين قاد راحلة أبي بكر!

([1]) صحيح البخاري: ٢٨٨٧

وهذا نداء الأمة لخليفة نبيها، ومن صفته، لا من اسمه؛ أمة تعرف للناس أقدارهم، وتنزلهم أسمى منازلهم أيضا، وحين تعلموا من مائدة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم من قولها عائشة أم المؤمنين يوما: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم[١].

وهذا الذي ذكره التاريخ في سجلاته الخالدة: ثم نهض بنفسه إلى الجرف فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير، وسار معهم ماشيا، وأسامة راكبا، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل ولست براكب، ثم استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب - وكان مكتتبا في جيشه - فأطلقه له، فلهذا كان عمر لا يلقاه بعد ذلك إلا قال: السلام عليك أيها الأمير[٢].

وعلى أن إنفاذ جيش أسام، كانت له من غلق باب للفتنة عظيم، وحين رأت العرب أنه ومن إنفاذ هذا الجيش العرمرم، وإذ إن هذا لمعناه أن أمة محمد بخير، وحين كانت جيوشهم هكذا، ومن بأسها، ومن قوتها، ومن لا هوادة في إبلاغ أمر الله تعالى إلى العبيد مشارق الأرض وغاربها.

وهذا الذي منه نفيد أيضان حرص قادة الأمة، ومتمثلة في أميرها الأول، وأن يتسلح، وأن يعد ما استطاع من قوة؛ لإخافة مرجف، ولإعاقة صنديد أيضا! وحين كان منه قول ربنا الرحمن سبحانه﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

---

(١) معرفة علوم الحديث، الحاكم: ٩٦، خلاصة حكم المحدث : صحيح.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٦ / ٣٣٦

وهذا الذي منه قالوا العرب: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه[1].

المبحث السادس: قتال المرتدين

وعلى أن هذا الدين، الإسلام الحنيف الخالد، وإنما قامت وشائجه أول مرة، وعلى أساس منه متين، ولما كانت العبادة وإنما بها يتوجه العبيد إلى ربهم الحق، وليس إلى أحد سواه، ومن ثم فإن هذا العبادة، ومن هكذا شرح، وإنما تكون قائمة مقامها هذا، ومن قطع النظر عن وجود محمد صلى الله عليه وسلم النبي، أو حتى ولي!

وهذا الذي كان منه وقفة أبي بكر، وحين اشرأبت أعناق حان قطافها، ولما دس الشيطان في أنوفهم نفخه وسمه ونفثه، ومن أنه ومن موت النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبه انقطعت علائق العبيد برب السماء!

وقد نسي أولاء المجاهيل قولة أبي بكر، ويوم أن مات هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان موفقا، وأيما توفيق، ولما كان ملهما وأيما إلهام أيضا، وحين قال قوله هذا: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} إلى قوله {الشاكرين}[2].

ذلك أن هذا الدين، ومن ميزته، وألا تعلق قلوب، وإلا بمن أسلمت له وجوهها، وقلوبها، أول مرة، وهي محسنة!

([1]) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ٣٣٦
([2]) صحيح البخاري: ٤٤٥٢

إن ما ذهب إليه المرتدون يومهم هذا لعجب عجاب!

إن الذي راح إليه المرتدون يومهم ذاك، وإنما هو تعلق دين القوم بشخوص هالكين!

ومتى كانت أوامر السماء، ومن هكذا سفل، وحين كانت هذه النظرة اللدنية لهكذا دين ربهم!

إن الناس وحين أسلموا وجوههم لربهم الحق أول مرة، وإنما كان من عقدهم هو هذا الذي نطق به الحق أبو بكر! ولما كان الفيصل في هذا، هو أن الله تعالى حي لا يموت، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات!

ومنه فإن محمدا كان عبدا، وإنما يسري عليه ناموس الفناء، وكما قد سرى عليه قانون الحياة يوما!

إن القول بربط العبودية لأشخاص زائلين، ويكأنه ومن تسرب دين اليهود والنصارى، إلى أدمغة قوم لا يؤمنون، والحال أنهم قالوا قولهم هذا!

إن الذين قالوا يوما إن عزيرا ابن الله، أو أولئك الذي زعموا يوما آخر أن عيسى ابن الله، ولأن هذه هي اللوثة التي أراد إبليس أن تحط برحالها ديارا كانت قد وحدت ربها يوما!

وهذا الذي كانت منه وقفة أبي بكر؛ لاقتلاعها، ومن جذورها أول المرة!

ولأن الفتنة نائمة، ولعن الله تعالى من أيقظها!

إن لوثة العبودية المشوبة بشرك، هي هذه التي جاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ببتر أصولها، واقتلاع جذورها، ومن أعماقها، وحين علم أن الحق لله تعالى وحده لا شريك له!

إن قتال المرتدين ليجعلنا نقف، ومن شموخ، لوقفة أبي بكر هذه، وحين قد سجلها له التاريخ العظيم.

إن أنصاف الحلول، وإذ ليست بمكان لها، أو من موئل في دين الله تعالى الإسلام الحنيف الخالد!

إن هذا الدين؛ ومن عزته، وإنما أن يؤخذ كلهن وإما أن يترك كله!

إن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك؛ ومنه كان توفيقا منه تعالى لأبي بكر أن وقف وقفته هذه، ورسالة إلى الذين يأتون ومن بعده ألا تقبلوا نصفا من حل، أو بعضا من طريق!

إن مساومة أهل الباطل، للنيل ولو بعضا من باطلهم، هو هذا الذي وقف منه أبو بكر وقفته التاريخية المجيدة هذه، وحين نفث الشيطان في روع فريق منهم، أن يدعهم، ولأنهم يقولون لا إله إلا الله!

إن هذه اللوثة التي وقعت، وإنما تجاهلت أن عقالا واحدا، كان يؤدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كان لله أول المرة!

وهو الذي حسبه أبو بكر، ومن حقوق، ومن تبعات، ومن لوازم هذه الشهادة المجيدة، التي يطنطن بها قوم آخرون! وإذ هم يتفلتون ومن ربقة دينهم، ولما لم تتبق فيهم منه ولو سحنة!

إن الذين تنادوا بتألف القوم؛ وريثما وريثما، وإنما هم يسلمون للنزع من القبائل مفاتيح، لو سلمت لهم لنهار هذا الدين، ومن أعلاه إلى أدناه، وإذا ليس له من أدنى؛ ولأنه كله أعلى!

إن تآلف الناس، وإذ كان غشا لهم، وحين قام على شفا جرف هار!

إن تألف الناس، وعلى حساب العقيدة، في الله تعالى، ولو شيئا، هو الذي يذبح هذه العقيدة، على تلال الجهل، ونواصي الدعيين!

إن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين أبى أول المرة، وأن يعبد الله تعالى يوما! ويعبد آلهتهم المدعاة يوما! ومن إحنهم، ومن جهلهم، وإنما كان يعلم أن هذه قسمة ضيزى!

إن القرآن العظيم كان، ولا يزال يقف؛ ومن صلابته، ومن عزته، ومن قوته، موقف الحسم، ومن هكذا دعوات، وإنما تنساق وراءها أدمغة، عشعش الجهل بأدمغتها! ولو كانت حسنة النية! ولأن حسن النية وحده ليس بكاف، وحين تكون العقيدة الحاسمة مجالا لأخذ ورد كاذبين!

وهذا الذي جاء حسم القرآن العظيم لتأديب القوم، وتعليما لهم، وتربية على مائدة، أن اتركوا أنصاف الحلول، وحين لا مجال لها ألبتة في أمر هذا الين وحين كان الأمر متعلقا بأصل منه، ولو واحدا!

إن القبول بقسمة ضيزى، لا مكان له عند المجدين، ولأنها تهوي بهم إلى مكان سحيق عميق! وإذ ليسوا يكادون أن يفيقوا، ومن سهادهم، وإلا يوم أن يتلقفهم موتهم، ومن رقادهم!

إن الذي قام أبو بكر، وفي وجده أنها فتنة كانت عارمة، ومن شأنها الذي أنف، وإنما يمثل حلقة من حلقات جهاده في ربه تعالى، وحين أعلا وسامه، ويوم أن تقلد الأمانة أول المرة! وحين قال: لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل[1].

إن وقفة أبي هذه التاريخية المجيدة، وغنما وجب أن تكون سننا وهديا حسنا، لمن أتى ومن بعده، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ولما كان هذا الدين حمله أمانة، وعلى الوجه الذي فهمه أبو بكر هذا!

ولما كانت منه وقفة الفاروق عمر، وإنما كانت، ومن حق، تسخيرا منه تعالى، وأن يماط بها اللثام، عن وجه كان للحق أن تدلهم ظلماته، ولو لم يكن بها قد أدلى، ولو لم يكن أبو بكر قد أسقطها إسقاطا، ورمى بها رميا.

عن أبي هريرة، قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه

([1]) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢١٨/٥، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فو الله، ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[1].

المبحث السابع: مزاعم القوم

وهكذا وحين يكون الشيطان متلبسا نفرا من الناس، وحين يلبس عليهم دينهم، فيجعلهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وحين ذم القرآن العظيم فريقا هو اليهود، وإذ كان من نعتهم هذا الذي حكاه المرتدون، ومن قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

أولا: احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[التوبة: ١٠٣]: إن احتجاج المرتدين أنهم ليسوا مطالبين بدفع الزكاة وإلا للنبي! ومن حيث قد مات النبي، فلا إلزام لهم بدفعها! وإذ يعد جهلا منهم، أو تجاهلا، بكونها ركنا جاء، ومنبت الصلة عن شخص هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنهم لم يعلموا حديث جبريل المشهور! أم أنهم عنه يغضون طرفا؛ ومن بخلهم ومن شحهم؟!

---

(1) صحيح مسلم : ٥٨

إن نص القرآن الحكيم أن الزكاة قرين الصلاة، خير شاهد على بطلان ادعاء القوم، ومن حيث قد سقطوا، ومن سقط معهم زعمهم هذا!

ثانيا: إن زعم المرتدين أنهم غير مطالبين بدفع الزكاة، وإلا لأبي بكر! عنوان على إطباقهم على جهلهم؛ ولأن الإمام وإنما قد نصب، ومن وظائفه حراسة العقيدة، وإقامة أمر الدين، والقيام على مصالح الرعية! والذي كان منه جباية الزكاة من أغنياء الأمة، ومن ثم ترد على فقرائها، إرثا عن هذا النبي أخذناه، وحين من سننه هو هذا الذي به أمر، وحين بعثه على اليمن:

ثالثا: إن زعم المرتدين أنهم وإنما مطالبون بإقامة الصلاة، وغير مطالبين بدفع الزكاة، وإنما هو جهل قد ركب في أدمغتهم؛ ولأن الزكاة هي اختبار لمدى كرم العبيد، وجودهم، وبذلهم، وتعبدهم، وحين قدرت أنصباؤها قدرا من الله تعالى وحده. وحين قد عرف أقاصي الناس ودانيهم أن الزكاة وإنما كانت قرينة الصلاة ذكرا كل مرة!

وعليه فإن ما ذهب إليه بعض الصحابة الأخيار؛ ومن حرصهم ألا يشق على إخوانهم، أو هم الذين كانوا من إخوانهم، وأن يتصبرهم الخليفة أبو بكر الصديق؛ وربثما يتغلغل الإيمان، ومن قلوبهم، ومن ثم يقودهم قودا إلى الركون والرضا، بالزكاة دينا وفرضا واجبا!

وإلا أنه الإمام الرشيد، ومن نظرته الرشيدة أيضا، وإنما تتأبى على هكذا مسلك؛ ولأنه، وكما قلنا آنفا فإن الأمر متعلق بأصل، ومن أصول الملة، وإذ هو أيضا ركن من أركانها، والجد فيه جد، والهزل فيه هزل!

وهذه رسالة إلى الطيبين من أمتنا، وحين يربتون على صدور المارقين، ولعلهم!

ولأن أحداث التاريخ، وسجلاته، قد مضت على أن التهاون في الركن ليس عملا صالحا! بل سرعان ما ينقلب هذا التهاون إلى عداء مرير، ومن خروج سافر أيضا، على مسلمات الأمة، ومن قرآنها، ومن هدي نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا كانت وقفة أبي، ومما أنف: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه.

موقف الفاروق عمر: وهكذا كانت قناعة الفاروق، وحين كان أحدا من أولاء الطيبين! ورغم قوته بالحق، وصدعه به، وحين قال أيضا: فو الله، ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

إن الله تعالى، وحين قرن الصلاة بالزكاة، وقرن الزكاة بالصلاة، وإنما كان دينا ومنهجا وسبيلا، ومنه فإن التفرقة بينهما، وإن هي إلا بمثابة تفرقة بين ما أنزل الله تعالى، وتقطيعه إربا، وهذا الذي غاب عن عمر الفاروق يومه هذا، وعن غيره أيضا؛ ولأنه الله تعالى قال﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٥].

إن الإسلام الحنيف الخالد، وحين جاء بأركانه الخمسة، عدا عدا، وإنما كان ليقف الناس على هكذا الأركان، وليسوا بعاملين لعقولهم من شيء، وأمام هذه النصوص الحاسمة، وحين قد جاء بها الملك جبريل عليه السلام، ومن عند ربه تعالى، ومن فوق سبع سماوات، وحتى يقول أحد بعدها، ومن قول! ولو كان قولا واحدا!

وهذا الذي كان منه حديث المرة الأولى! وهو الذي يعد حديث النشأة الأولى، ومن بكارة التأسيس، ومن بادرة التقعيد، والتأصيل، لقواعد هذا الدين وأركانه. والتي تكون هي المنهج، وما عداها يكون خلطا للأوراق، والذي منه لست تكاد واجدا من قاعدة، أو أصل يقوم هذا الدين عليه! وكما قد قام أول مرة!

وهذا الذي أدى بفرق عظيمة من الإرجاء، وهو الذي قاد فرقا أخرى إلى التحلل!

ويكأنك، وحين تتلمس سبيل الناس، وإنما وحين هم على سبل شتى، وربنا تعالى وحد السبيل، وجعله سبيلا واحدا، ومنهجا واحدا أيضا.

وحين أمر نبيه به، ومن قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا الذ يكان منه وكما انف بادرة الإسلام الأولى ومن حديث: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم: {إن الله عنده علم الساعة} [لقمان: ٣٤] الآية، ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم[١].

(١) صحيح البخاري: ٥٠

وهذا الذي جاء منه حديث: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان[1].

ولعلنا قد وقفنا على هذه الخطبة الجامعة الحاسمة، والتي قد أنطق الله تعالى بها عبده وخليفة نبيه ابي بكر عنوانا على التوفيق، وبرهانا على الإلهام، والسداد، والجزالة، والجزم، وحين: روى الحافظ ابن عساكر من طريقين عن شبابة ابن سوار، ثنا عيسى بن يزيد المديني، حدثني صالح بن كيسان قال: لما كانت الردة قام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمد ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رث حبله، وخلق عهده، وضل أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرا لشر عندهم، قد غيروا كتابهم وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشا، وأضلهم دينا في ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب، فختمهم الله بمحمد وجعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم حتى قبض الله نبيه ﷺ فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم وبغى هلكتهم { وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين } [آل عمران: ١٤٤] .

إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ولم يكونوا في دينهم، وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا على ما قد تقدم من بركة نبيكم ﷺ وقد وكلكم إلى المولى الكافي الذي وجده ضالا فهداه، وعائلا فأغناه، { وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها } [آل عمران: ١٠٣] .

---

(١) المرجع السابق: ٨

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتل منا شهيدا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض } [النور: ٥٥] . ثم نزل[١].

إن الخوف على الأفراد وعقائدهم دين، وإن حراسة أمر العقيدة دين.

إن تجييش الجيوش لحراسة هذه العقيدة دين.

إن قيام الجيوش على تأديب المناوئين لدينهم وعقيدة ربهم تعالى دين.

إن تحول الجيوش المجيشة من أصل مهنتها، وعقيدتها، ووظيفتها، ومن هكذا السهر على حماية بيضة الدين ونسكه، وإنه لعمل غير صالح!

وهذا الذي كان منه عمل أبي بكر، وحين أحاط المدينة؛ وحراسة لها من تغول غال، أو من تنكب شارد، أو تحول مارد!

وحين سولت لأسد وطيء وغيرهما أنهم؛ ومن قلة أهل المدينة، يمكنهم أن يكتسحوها، وقد نسوا أن الله تعالى، ويوم أن كانوا من أولاء القلة المؤمنة، وإلا أنه تعالى جعل من تمكين الفئة القليلة منهجا وسبيلا!

وحين قال الله تعالى ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهذا الذي كان منه عمل أبي بكر، وحين طمعت أسد وحلفاؤها، أن تنال من المدينة ثغرها، ولو شيئا؛ ولأن الله تعالى قيض أبا بكر؛ لإقامة عهده وإنفاذ ميثاقه! وحين: اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدي، وبعثوا وفودا إلى المدينة، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلا العباس، فحملوا بهم إلى

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٤٣

أبي بكر على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالا لجاهدتهم، فردهم، فرجعوا إلى عشائرهم فأخبروهم بقلة أهل المدينة وطمعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد، وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلا يأتون أم نهارا، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة، وخلفوا نصفهم بذي حسى ليكونوا ردءا لهم، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم أن الزموا مكانكم، وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسي، فخرج عليهم الردء، فالتقوا مع الجمع فكان الفتح[1].

إن هذا الحسم، والذي كان منه، رمي بكر القوم بالكفر، ولو عموما، وهو الذي يكون من شأنه، هو هكذا الحسم، ومع الفئة الشاردة، الماردة، المارقة؛ وليكون آية للمرجفين، وسبيلا للسالكين أيضا، وحين لا يرتضون الدنية في دينهم!

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٤٤

المبحث الثامن: من أمجاد العسكرية الإسلامية

وهذه هي القيادة العسكرية الماهرة، وحين أغار الناس على المدينة، ولما ارعوى أبو بكر، لذلكم حدث، وحين هب هبته، ولم يكد المشركون، وحين كفروا، ومن ردتهم؛ ومن إبائهم دفع الزكاة! إلا أن باغتهم أبو بكر وجنده، ولو كانوا قلة، وفي حصونهم، التي اتخذوها؛ ملاذا.

ويكأنهم زعموها، هكذا حصنا منيعا، وإذ وأمام هذه الفئة المؤمنة القليلة كانت هباء منثورا! وحين أمكن الله تعالى لخليفته عليهم جميعهم!

إن قيام القائد، على تعبئة جنده أمر عسكري هام؛ وكيما يبعث فيهم النخوة، ويشد على أزرهم، فلا يهينون، ويقوي من عضدهم، فلا يضعفون.

وهذا تكتيك واستراتيجية عسكرية باهرة، في كيفية إدارة الأزمات، وكيف كانت من قائد حكيم، ومن كمثل لأبي بكر هذا!

إن إعداد المناوئين الكفرة قِرَبَاً من الهواء؛ لإخافة إبل جيش الصديق، كان حيلة ما كرة، وإذ وفق الله تعالى أبا بكر؛ للحيلولة دون أثرها المر، ومن ثم حين أطل بقواعده إليهم، ولما أغار بجنده عليهم، وفي عقر دارهم، فأذاقهم بأسهم شديدا!

ولعل درسا يتلقاه القادة العسكريون؛ ومن مهارة أبي بكر هذا، ولما أمر جنده بلزوم أماكنهم، ولا تزحزحون عنها شيئا؛ ولأن إمضاء الخطط العسكرية؛ للدفاع عن حياض المدينة، كان قد أعد سلفا.

ولا يغيرن منها إلا ما كان عملا صالحا، وبخطوط إمداد أخرى؛ كيما نحافظ على الزخم الأول، فلا ينفرطن للقوات عقدها، ولا يلين لها جانبها، وإنما يؤتى بقوات أخرى مساعدة، ومن خطط جديدة

بديلة، وإن لزم؛ وكيما لا نعرقل ما قد اتخذ من قرار، ولعل ذلك يكون أدعى؛ لكسر شوكة مهاجم، فيلوذ ومن موجبه الفرار!

وهذا الذي حدث يوم أن قال أبو بكر: فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا[1].

وهذا الذي كانت منه طاعة جنده، في رسالة خالدة أيضا؛ ولأن السمع والطاعة، هما عمادا خوض الغمار، ولنيل نصر الله القهار الجبار.

ولعل درسا كان قد أفاده أبو بكر هذا، ومن يوم أحد، ويوم أن ترك الناس أماكنهم، ولما كان منه ما كان يوم أحد أيضا.

إن إفادة القائد العسكري الماهرة، ومن تاريخ كان قد أحاط، هو في حد ذاته عمل عسكري باهر أيضا.

والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي: وهذا الذي قاله المسلمون يوم الردة، وعرضا على الأمير الخليفة القائد؛ وخوفا عليه من زمرتهم، وخشية عليه ومن غدرتهم!

وإلا أنه وهو ذلكم القائد الشجاع المغوار، وحين كان طلب الناس شهادتهم في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين.

ومنه فلم يكد أن يسايرهم سيرهم، وإنما وإذ كانت هذه تعبئته لهم أيضا؛ ولأنه وحين يكون القائد وسط جنوده، وإنما يهبهم دفعتين، ومع ما قد أنعم عليهم ربهم من دفعات أخر سابقة أيضا.

وإلا أنه، وإنما يسجل التاريخ لأولاء أمة كانت ترعى حق واليها، وحين كان عليه خوفها ووجلها!

([1]) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٣٤٤/٢

وحين ولى أبو بكر الصديق يومها أسامة بن زيد على المدينة أميرا أيضا، وتوا قد رجع الرجل ومن فتح الشام، ويوم أن قلده النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنه فإن الرجل وإذ لم ينس قيمة أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين قلده هكذا مرتين، وحين كانت الأولى يوم بعثه إلى الشام، وعلى تقليد النبي صلى الله عليه وسلم له، وهي هذه المرة يوم أن حل محله، وإذ قلده المدينة إمارتها يومه هذا.

ثم قدم أسامة بن زيد بعد ذلك بليال، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وأمرهم أن يريحوا ظهرهم، ثم ركب أبو بكر في الذين كانوا معه في الوقعة المتقدمة إلى ذي القصة فقال له المسلمون: لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلا. فقال: والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي، فخرج في تعبئته[1].

أبو بكر يركب وعلي يقود الراحلة! هذا مشهد يحكي صورة المحبة وكما أنه يروي لنا حكاية الولاء وبين ذوي هذه العلاقة العقدية الثابتة المتينة الراسخة في ربها تعالى!

وحين يركب الصديق الراحلة، وها هو علي أبو الحسن والحسين يقودها!

وحين يسأله وعن وجهته، وحين راح نفسه إلى عقر ديار المرتدين! وقفا لهكذا فتنة عارمة، ولما يتصدى لها القائد بنفسه، وبلا ولاية أو إنابة أو تفويض أو توكيل!

ولأنه وحين تكون عظائم الأمور، وإنما كان القائد إماما لجنده حفزا واحتسابا معا.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٤٦

غير أنه وليس يغيب عن بالنا هو هكذا حرص الرعية على راعيهم، وهكذا وقوفهم جنبا إلى جنب معه، وإذ ليس من أحد قد حكى التاريخ فراره وانخزاله، وهذا فضلا عن تجشمه، وهذا فضلا عن رعايته، والحرص عليه، والذود عنه أيضا.

ولأنه ومن حمايته، وإنما تحتمى بيضة ديننا، ويرفع لواء مجده؛ ومن سبب أولاء رهبان الليل فرسان النهار!

فعن ابن عمر قال: لما ندر أبو بكر الصديق إلى ذى القصة فى شأن أهل الردة واستوى على راحلته أخذ على بن أبى طالب بزمام راحلته فقال إلى أين يا خليفة رسول الله أقول لك ما قال لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة فو الله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدا [1].

المبحث التاسع: مسألة التحريق بالنار

هذا وقد وردت رواية طويلة، وإن حملت محامل الجهاد والتضحية والجد مواجهة هذه الفئام الشاردة.

وإلا النفس ليست إلى كل ما فيها مطمئنة؛ ولورود مسألة التحريق بالنار.

وهذه مسألة لا نرى لذكرها قيمة، ولا سيما وحين ذكروا ضعفا لها ومن سندها.

وهذا نص الرواية: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

(1) كنز العمال، المتقي الهندي: ١٤١٦٧ و ٤٤١٥٨، رواه (الدارقطنى فى غرائب مالك، والخلعى فى الخلعيات، وفيه أبو غزية محمد بن يحيى الزهرى متروك).

وأن محمدا عبده ورسوله، نقر بما جاء به، ونكفر من أبى ذلك ونجاهده، أما بعد فإن الله أرسل بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها، ثم توفى الله رسوله وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل، فقال: { إنك ميت وإنهم ميتون } [الزمر: ٣٠] .

وقال: { وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون } [الأنبياء: ٣٤] .

وقال للمؤمنين: { وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين } [آل عمران: ١٤٤] .

فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره منتقم من عدوه، وإني أوصيكم بتقوى الله، وحظكم ونصيبكم، وما جاءكم به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يعنه الله مخذول، ومن هداه غير الله كان ضالا، قال الله تعالى: { من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا } [الكهف: ١٧] .

ولن يقبل له في الدنيا عمل عبد حتى يقر به، ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به اغترارا بالله، وجهلا بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: { وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا } [الكهف: ٥٠] .

وقال: { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير } [فاطر: ٦]

.

وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل فإن أجاب وأقر وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه، وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، وأن يقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد غير الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابه في كل مجمع لكم والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا حمل منهم على ما ينبغي لهم، رواه سيف بن عمر عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك[١].

المبحث العاشر: تقليد خالد بن الوليد

وإنما كان ذلك كذلك؛ ومن تقليد النبي محمد صلى الله عليه وسلم له، ومن نعته له سيف الله المسلول، والذي قد سله الله تعالى على الكافرين!

وهذه إشارة، وكما أنها بشارة، ويكأنها علم نبوة ضاف، وحين نعلم أن الذي سله هو مولاه تعالى، ومن إشارة إلى كم كان فضله رضي الله تعالى عنه.

ومنه يفاد باختيار الأتقياء للمهام العظام، وحين كانت معهم السماء، فتحيطهم برعايتها، وكما أنهم ل ومن عرش ظلها الوارف أيضا.

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ / ٤٨٢

المبحث الحادي عشر: استتابة طيء

وهذا عدي بن حاتم، وحين أرسله أبو بكر إلى قبيلته طيء، في رسالة الاستتابة، وعنوانها هو العزة، وإن رجعوا، وإلا فسيف الله المسلول، شاهر سيفه، وحين قد قلده الإمام، وأوكله الخليفة

وهذه رسالة الإسلام العليا، وحين كانت هذه المحاولات، في استتابة القوم، ورجوعهم، ولعل نفثة إبليس تغدو عنهم، وليحل محلها هو ذلك الرجوع إلى الحق المبين.

فعن وحشي بن حرب: أن أبا بكر رضي الله عنه عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: " نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله سله الله عز وجل على الكفار والمنافقين "[1].

وكان أن تكلل جهده بنجاح وافر، وحين أجمعت كل من ذي القصة وطيئ أمرهما على الحق جمعا، وحين قد كان التوفيق حليفا لعدي بن حاتم، ولما كان منه طلب النذارة لطيئ ثلاثا، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقد هداهم!

وهذا الذي منه جاءت كلمة هذا الدين، في استتابة الماردين، ولعل الله تعالى أن يقذف في قلوبهم الحق والأوبئة إليه، ومن محبة، ومن رضا، وذلكم بدل أن يجابهوا بالسيف أول مرة!

فذهب عدي إلى قومه بني طيء فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبدا - يعنون أبا بكر رضي الله عنه -. فقال: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدي يفتل لهم في الذروة والغارب. حتى لانوا[2].

([1]) مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الخلفاء الراشدين، الإمام أحمد بن حنبل: ٤٣

([2]) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٤٩

المبحث الثاني عشر: إن لك رحاء كرحاه، وحديثا لا تنساه

هذا رجز! وهذا هزال!

وهذا قول تلبس بحق، وحين كان من خبر خالد بن الوليد، عهد أبي بكر الصديق، ولما كان يكنس الارتداد كنسا، وإذ لم تتبق أمامه ومن محلة، وإلا قد أخذها أخذا، وكبها على وجهها كبا، وإذ لا تكاد، وإلا من بطرها النكد الأشر، ومن كفرها أيضا!

ولما كان تحركه إلى هذا الدعي طليحة الأسدي، وحين زعم أنه نبي!

وحين التف حوله بعض من رعاع، ومن كمثله سفها، وحين استنفر معه عيينة بن حصن نفرا من أولاء المغررين، وأن جبريل ينزل بوحي على طليحة الأسدي هذا!

ولما كان يأس، ومن فرجة أيضا، وحين يسأله عيينة: أجاءك جبريل؟! ومرة ومرات، ولما كان في الأخرى، وأن قال قوله هذا: إن لك رحاء كرحاه، وحديثا لا تنساه! وفي إشارة نلمح فيها خزيه، ونبصر فيها خذلانه! ولأن الحق ما شهدت به الأعداء، وحين كان من صولة خالد عليه، وأن أكبه، وهذا هو الحديث الذي ليس ينساه!

وإذ كان تفرق جمعه، وتشتت امره، وانقلاب الناس عنه، إلى الهدى، ومن بعد علمهم، لما خيل إليهم من سحره أنها تسعى!

ثم سار خالد حتى نزل بأجأ وسلمى، وعبى جيشه هنالك والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له: بزاخة، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بني فزارة، واصطف الناس وجلس طليحة ملتفا في كساء له يتنبأ لهم، ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم، وجعل عيينة

يقاتل ما يقاتل حتى إذا ضجر من القتال يجيء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فيقول: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك، ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم. قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحاء كرحاه، وحديثا لا تنساه. قال: يقول عيينة: أظن أن قد علم الله سيكون لك حديث لا تنساه. ثم قال: يا بني فزارة انصرفوا، وانهزم وانهزم الناس عن طليحة، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها له، وأركب امرأته النوار على بعير له، ثم انهزم بها إلى الشام، وتفرق جمعه، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه، فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع، قالت بنو عامر وسليم وهوازن: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا[1].

ولكن طليحة كان قد تاب، وكما كان من مثله عيينة قد أناب، وحين حسن إسلام كل منهما، ومما يحسب لهما رجوعهما وإنابتهما أيضا. ولأن الحق أحق أن يتبع.

ولكن الذي نفيده هاهنا هو هذه حكمة أبي بكر، ولما كان منه وأن نعم قبول توبة من تاب، وإلا أنه أمر خالدا بن الوليد، أن يستشير طليحة، وأن نعم، وإنما ليس يؤمره، وفي قاعدة الجزاء من جنس العمل، ولما كان قد اشرأبت عنقه إلى الرياسة يوما؛ ومن صلف، وإلا أنه الآن يحرم منها، ومن هكذا فعل السلف! وحين قال أبو بكر لخالد أن: استشره في الحرب ولا تؤمره[2].

من بركات الأولياء: ويوم أن أقر طليحة الأسدي، ويوم أن لم يكن قد خالط الإيمان بشاشة وجهه يوما بعد، وإلا أنه ومن بعد استتابة الصديق له، وإذ ينعم عليه مولاه، ويكأنه لم تكن به لمة من كفر، ويكأنه

([1])البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥٠
([2])المرجع السابق: ج٦ / ٣٥٠

وحين قد حسن إسلامه، وعلا بالله تعالى إيمانه. وحين قال: والله ما كنت آمنت قط، فلما وقف بين يدي الصديق استتابه وحقن دمه، ثم حسن إسلامه بعد ذلك[1].

المبحث الثالث عشر: مسألة التحريق بالنار

أنف ذكر طرف من ذلك.

ويكأنها المسألة بحاجة إلى بسط يسير آخر.

ولأن الناس قد اختلفوا حولها.

والواقع أننا أمام حديث صحيح، يقضي بعد جواز التحريق بالنار، ولأنه ذلك من خصائص من خلقها، وإذ ليس يعذب بها إلا هو سبحانه.

فعن عبدالله بن عباس: أن عليا رضي الله عنه حرق قوما، فبلغ ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من بدل دينه فاقتلوه[2].

ومنه فإن من فعل ذلك، وإنما يبحث له عن تأويل، أو أنه اجتهاد، أو أنه لم يصل إليه، أو وصل إليه، ولم يأخذه تحريما بل كراهة، أو لأنه لم يصدر ذلك عنهم ابتداء!

أما الإحراق: فروى ابن أبي الدنيا من طريق البيهقي، ومن طريق ابن المنكدر: أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجد رجلا في بعض نواحي العرب، ينكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر الصحابة،

---

(1)المرجع السابق: ج٦ / ٣٥٠
(2)صحيح البخاري: ٣٠١٧

فسألهم، فكان أشدهم في ذلك قولا علي، فقال: نرى أن نحرقه بالنار، فاجتمع رأي الصحابة على ذلك . قلت: وهو ضعيف جدا، ولو صح لكان قاطعا للحجة "[1].

وذهاب الجمهور على جواز التحريق بالنار، ومن مقتضى القصاص، ولقوله تعالى وإنما لنا معه وقفة أيضا، وإذ ولم ليس يعتبر القرآن الحكيم قد جاء مخصصا، ومنه يخرج بتأويل سائغ للجمع بين الدليلين، وحين لم يمكن القطع بأسبقية أحدهما الآخر، ومما يعتبر نسخا في هذا الباب؟

وهذا الذي منه قول أبي بكر، وإن صح وإنما يوجه وجهتنا التي أنفت، وحين كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره، فكتب إليه ليزدك ما أنعم الله به خيرا، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جد في أمرك ولا تلن، ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن بري أن في ذلك صلاحا فاقتله[2].

المبحث الرابع عشر: معركة بزاخة

ولكن هذا حسم أبي بكر، ويكأنه عزم خالد، وحين قد أوصاه الخليفة، حزمه ألا يلين، مواجهة هذه الأخطار المحدقة، التي وإن لم تؤخذ هكذا، وبما يستحق لها من مواجهة، وقوة، وإلا أن خطرها لمحدق، وحين قد سولت لهذا نفسه ردة، ومن وجه الزكاة، وإذ يمكن أن يستشري أجيجها، في الأمة؛ فلا تكاد تنهض

وهذا الذي عمل به خالد، وحين حاصر الناس شهرا؛ ليؤوبوا، وحين عمل فيه عمله؛ وليتوبوا.

---

(1) الدراية في تخريج أحاديث الهداية، ابن حجر: (٢ / ١٠٣) .
(2)البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥١

المبحث الخامس عشر: عمل الشورى

وهذا الذي كان من أبي بكر رضي الله تعالى عنه أن أمهلهم يتيهون في الصحراء، يتبعون أذناب الإبل؛ ذلة ومهانة؛ وحتى يشاور فيهم أهل صحبته، ومن منهم محل ثقته وديانته.

وهو الذ ي كان منه فرارهم إلى أبي بكر ليقول لهم قوله: قوله : لوفد بزاخة الوفد بفتح الواو وسكون الفاء هم القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وافد، وكذلك الذين يقصدون الأمراء لزيارة واسترفاد وانتجاع وغير ذلك، وبزاخة بضم الباء الموحدة وتخفيف الزاي وبالخاء المعجمة موضع بالبحرين أو ماء لبني أسد وغطفان كان فيها حرب للمسلمين في أيام الصديق، رضي الله تعالى عنه.

ووفد بزاخة ارتدوا ثم تابوا وأرسلوا وفدهم إلى الصديق يعتذرون إليه، فأحب أبو بكر أن لا يقضي فيهم إلا بعد المشاورة في أمرهم، فقال لهم: ارجعوا واتبعوا أذناب الإبل في الصحارى حتى يري الله خليفة نبيه إلى آخره، وذكر يعقوب بن محمد الزهري قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: قدم وفد أهل بزاخة وهم من طيء يسألونه الصلح، فقال أبو بكر: اختاروا إما الحرب المجلية وإما السلم المخزية، فقالوا: قد عرفنا الحرب فما السلم المخزية؟ قال: ينزع منكم الكراع والحلقة وتدون قتلانا، وقتلاكم في النار، ويغنم ما أصبنا منكم وتردون إلينا ما أصبتم منا وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه والمهاجرين أمرا يعذرونكم به، فخطب أبو بكر الناس فذكر ما قال[1].

وعن طارق بن شهاب، عن أبي بكر، رضي الله عنه، قال لوفد بزاخة: تتبعون أذناب الإبل حتى يري الله خليفة نبيه والمهاجرين أمرا يعذرونكم به[2].

---

(1) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ج ٢٤ / ٢٧٨
(2) صحيح البخاري: ٦٨٣٣

المبحث السادس عشر: امرأة تؤلب على سيف الله!

وهذا الذي كان منه اجتماع فئام من الناس حول امرأة يقال لها أم زمل سلمة بنت ملك بن حذيفة، ولما كان من خبرها تأليبها قومها على جند الله تعالى، والذي هم قائدهم سيف الله المسلول!

وحين وصل إليه خبرهم، وإذ لم ينتظر هجومهم، بل باغتهم هو ومن عقر دارهم! في هزيمة نكراء قد أحاقت بهم، ويوم أن ساسوا أمرهم لامرأة! وحين قتلها خالد وجملها في إنكاء آخر، وإثخان مثيله! و من بعده بعث بالفتح إلى الصديق رضي الله عنه[1]، يبشره، ومن حلقة أخرى من حلقات هذا الجهاد في الله تعالى الحق المبين.

المبحث السابع عشر: سجاح بنت الحارث النصرانية

وإذ كانت نصرانية وحين ادعت النبوة وكان من أمرها ذهابها إلى بني تميم لينصرها قوم فئام منهم.

وكانت قد راحت إلى مسيلمة الكذاب في يمامته واقتسما الأرض معا نصفين!

وحين تزوجها مسيلمة هذا ومن دون مهر لها ولما عابها قومها أرسلت إليه بمهرها فوضع عنهم صلاتي الفجر والعشاء وذاك مهرها!

ثم انثنت سجاح راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دنو خالد من أرض اليمامة، فكرت راجعة إلى الجزيرة بعد ما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية، فأجلاهم منها عام الجماعة[2].

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥١

[2] المرجع السابق: ج٦ / ٣٥٣

المبحث الثامن عشر: قتل مالك بن نويرة

اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد

هذا حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شأن خالد بن الوليد سيف الله المسلول، وحين كان من خبره أنه قتل أسارى أبي جذيمة، وحين استعجل أمرهم؛ ومن قولهم صبأنا، أي رجعنا من الكفر إلى الإسلام، وحين تأولها خالد عكس دواخلهم؛ ومنه كان قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا، ولما كان قد أودى القتلى، ومن بيت مال المسلمين، ولم يكن من مال خالد، ولأنه هذا خطأ تتحمله ميزانية بيت مال المسلمين.

وقد أفضنا في هذا المبحث حقه في موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات، بما أغنى عن إعادته.

وفقط لأنه لصيق الصلة بما قد فعل خالد؛ ومن سرعته، ومن لا استتابته مالك بن نويرة، وحين طالب الفاروق عمر يومها بعزله؛ ولأن سيفه سابقه !

ولكن أبابكر لم يعزل سيفا قلده رسول الله صلى الله عليه وسلم!

ولكن أبا بكر أيضا كان قد أودى عن مالك بن نويرة، وكما قد أودى النبي صلى الله عليه وسلم أسارى أبي جذيمة!

وهذا عمل القياس في شرعنا.

وعودة إلى مسألة مالك بن نويرة هذا، وحين كلمه خالد شأن أنه فرق بين الصلاة والزكاة، وأن الزكاة قرينة الصلاة، وليرد عليه مالك قوله، ومن فظاظة، لم يتحملها سيف الله المسلول، والذي كان منه وأن قتله! ولأنه لم يقرن صلاته بزكاته.

وقال خالد: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك. فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك يا ضرار إضرب عنقه، فضربت عنقه[1].

المبحث التاسع عشر: فرية وردها

وهذا الذي منه رد على ما أثاره بعض اللغطة، وأن خالدا وإنما استبق ضرب مالك؛ وطمعا في زواجه من زوجته ليلى بنت سنان!

ويبرأ خالد، ومن كمثل هكذا الذي قالوه، وحين كان سيفا مسلولا من السماء، ومن ثم طهرته السماء عن هكذا سوء، وإن الحور لينتظرنه!

وإلا اننا أيضا نقف على هكذا رغبة عمر الفاروق عزل خالد؛ ومما أنف سبق سيفه حكمته!

المبحث العشرون: اجتهاد عمر الفاروق

وهذا تأويل لعمر، وكما أنه كان تأويلا لخالد. وحين سمعت أذناه هكذا ما يفهم منه استهزاء بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال مالك بن نويرة هذا: إن صاحبكم كان يزعم ذلك. ومنه كان رده: أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟! ما أنبأك عن تأويل كان واقع الحال أميره.

ولا سيما أيضا أن الناس يومهم هذا، وإذ كانوا من أجل ما يمكن وصفه محبتهم لنبيهم، وإذ كانوا عليه يغارون، ومن أبلغ مكامن الغيرة ومظانها عليه قد بلغوا!

([1])البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥٤

وكل قد اجتهد، وله أجر وحين أخطأ، وله أجران وحين أصاب؛ ولأن الوقائع الحالية، وكثيرا ما تتلبس بمثل هكذا أوجه حمالة، ومنه جاء اجتهاد الأمة رحمة! وحين كان منه حديث: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر[١].

(إن خالدا أخذها هي وابنها ملك يمين بوصفها سبية، إذ إن السبية لا عدة عليها، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملا قبل أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة، ثم دخل بها وهو عمل مشروع جائز لا مغمز فيه ولا مطعن، إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم، وأن خالدا قتله من أجل امرأته وأما ما ذكره من تزوجه بامرأته ليلة قتله، فهذا مما لم يعرف ثبوته . ولو ثبت لكان هناك تأويل يمنع الرجم . والفقهاء مختلفون في عدة الوفاة: هل تجب للكافر ؟ على قولين . وكذلك تنازعوا: هل يجب على الذمية عدة وفاة؟ على قولين مشهورين للمسلمين، بخلاف عدة الطلاق، فإن تلك سببها الوطء، فلا بد من براءة الرحم . وأما عدة الوفاة فتجب بمجرد العقد، فإذا مات قبل الدخول بها فهل تعتد من الكافر أم لا ؟ فيه نزاع . وكذلك إن كان دخل بها، وقد حاضت بعد الدخول حيضة.

هذا إذا كان الكافر أصلياً. وأما المرتد إذا قتل، أو مات على ردته، ففي مذهب الشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد ليس عليها عدة وفاة بل عدة فرقة بائنة، لأن النكاح بطل بردة الزوج، وهذه الفرقة ليست طلاقاً عند الشافعي وأحمد، وهي طلاق عند مالك وأبي حنيفة، ولهذا لم يوجبوا عليها عدة وفاة، بل عدة فرقة بائنة، فإن كان لم يدخل بها فلا عدة عليها، كما ليس عليها عدة من الطلاق.

ومعلوم أن خالدا قتل مالك بن نويرة لأنه رآه مرتداً، فإذا كان لم يدخل بامرأته فلا عدة عليها عند عامة العلماء، وإن كان قد دخل بها فإنه يجب عليها استبراء بحيضة، لا بعدة كاملة، في أحد قوليهم، وفي

---

(١)صحيح البخاري: ٧٣٥٢

الآخر: بثلاث حيض، وإن كان كافراً أصلياً فليس على امرأته عدة وفاة في أحد قوليهم . وإذا كان الواجب استبراء بحيضة فقد تكون حاضت . ومن الفقهاء من يجعل بعض الحيضة استبراء، فإذا كانت في آخر الحيض جعل ذلك استبراء لدلالته على براءة الرحم .

وبالجملة فنحن لم نعلم أن القضية وقعت على وجه لا يسوغ فيها الاجتهاد، والطعن بمثل ذلك من قول من يتكلم بلا علم، وهذا مما حرمه الله ورسوله)[1].

المبحث الواحد والعشرون: موقعة اليمامة

علم نبوة ضاف

هذا علم من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم! وحين يأتي تأويله ومن بعد موته صلى الله عليه وسلم! ولما كان من تصديق هذا الدعي الجال مسيلمة على كذبه اقتسام النبوة قسمين بينه وبين رسول الله وخاتم النبيين!

فعن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: بلغنا أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة فنزل في دار بنت الحارث، وكان تحته بنت الحارث بن كريز، وهي أم عبد الله بن عامر، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس -وهو الذي يقال له: خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم- وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب، فوقف عليه فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خليت بيننا وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت بن قيس، وسيجيبك عني. فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم. قال عبيد الله بن عبد الله: سألت عبد الله بن عباس عن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي

([1])عبقرية الصديق، العقاد: ص ٧٠.

ذكر، فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب، ففظعتهما وكرهتهما، فأذن لي، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان. فقال عبيد الله: أحدهما العنسي، الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذاب[1].

ولكن هذا فصل جديد ومن فصول جهاد الصديق، وأنه لم يضع له سيفا، وصحبة سيف الله المسلول، وحين راح إلى اليمامة لتأديب مسيلمة هذا ويكأنه لم يضعف، ولم يستكن، وأمام جيش جرار كان عداده أربعين ألفا يومه ذاك!

عن رافع قال كان بالرحال ابن عنفوة من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير فيما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ عجيب فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما والرحال معنا جالس مع نفر فقال أحد هؤلاء النفر في النار قال رافع فنظرت في القوم فإذا أبو هريرة الدوسي وأبو أروى الدوسي والطفيل بن عمرو الدوسي ورجال بن عنفوة فجعلت أنظر وأتعجب وأقول من هذا الشقي فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعت بنو حنيفة فسألت ما فعل الرجال بن عنفوة فقالوا افتتن هو الذي شهد لمسيلمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم انه أشركه في الامر بعده فقلت ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق وسمع الرحال وهو يقول كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا. رواه الطبراني وقال فيه الرحال بالحاء المهملة المشددة وهكذا قاله الواقدي والمدائني وتبعهما عبد الغني بن سعيد ووهم في ذلك والأكثرون قالوا إنه بالجيم الدارقطني وابن مأكولا، وفي اسناد هذا الحديث الواقدي وهو ضعيف[2].

([1])صحيح البخاري: ٤٣٧٨

([2]) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٨ / ٢٩٠

وعلى أن هذه هي وقعة اليمامة المشهورة، وحين بدأت بحرب أولئك المرتدين، وبزعامة مسيلمة الكذاب هذا، ومناصرة من ناصره من الكذبة معهم، ولما كان منهم ومن مقدمتهم هو هذا الرحال! وحين كان انتهاؤها مقتل زعيمهم مسيلمة الكذاب الأشر!

غير أنه ولابد من إشارة إمداد هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة يومها هذا جيش خالد، وبسرية ضافية إضافية أخرى! عونا على المواجهة، وردءً آخر أيضا؛ ولأن جيوش مسيلة كانت عديدة!

ودلك على هذا ما أشار إليه المؤرخون ومن انتهاء المعركة وبقتل عشرين ألفا من جيش مسيلة هذا؛ وكناية عن غفير جيشه يومه هذا!

ويسجل التاريخ أيضا هو هذا التنظيم البارع لجيش خالد، وحين كانت للأنصار رايتهم، وللمهاجرين رايتهم، وللعرب رايتهم، وكل منضو تحت هذا التنظيم؛ حكاية المعركة الحاسمة!

وإلا أنه يسجل التاريخ كلمة المعركة يومهم هذا؛ وفي عنوان على وحدة النبوة، وكسر شوكة الكذاب الأشر، وحين كانت كلمة جيش المسلمين يومهم هذا هي: وامحمداه!

وإذ تنبغي الإشارة أيضا إلى هكذا البذل والحسم والحزم، وحين تميز به أولاء الصحب الكرام، ولما كان كل قد أثبت مكانه؛ وإنكاء في عدو الله تعالى وعدوهم.

وليس أدلك على هذا، ومن فعل وحشي قاتل حمزة، ويكأنه أراد أن يكفر عن خطاياه يومه هذا، ولما كان من ظفره بمسيلة الكذاب عنوانا على هكذا التوفيق الرباني، ودلالة على إرهاصات قبول توبته، ولأنه كان محسنا يوم اليمامة هذا!

وليس أدلك أيضا على دور كل منهم في هذا السجال التاريخي الحافل! وحين كان من ثابت بن قيس بن شماس ومن فعله أن أثبت نفسه في الأرض ويعلوه ترابها إثباتا! وكيما ليس يسول له شيطانه ومن فرار!

وليس ينسى التاريخ يوم مجده هو ثابت بن قيس بن شماس وحين قال ثابت بن قيس بن شماس: يا رسول الله إني أخشى أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك؟ قال نهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهير. الحديث. وفيه (فقال له عليه الصلاة والسلام: أما ترضى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة[١].

عن أنس أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوم اليمامة وقد تحنط ونشر أكفانه، وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وأعتذر مما صنع هؤلاء، فقيل: وكانت له درع فسرقت، فرآه رجل فيما يرى النائم، فقال: إن درعي في قدر تحت كانون في مكان كذا وكذا، وأوصاه بوصايا، فطلبوا الدرع فوجدوها وانفذوا الوصايا[٢].

ولعل هذه، ومن بركات أولياء الرحمن، وحين كانوا لربهم أتقى.

وهذا الذي كان منه أيضا وصف دقيق لسير المعارك يومها هذا وحين: جعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم، وحفر ثابت ابن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقية وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتا حتى قتل هناك. وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك.

فقال: بئس حامل القرآن أنا إذا.

---

(١)فتح الباري لابن حجر، ابن حجر العسقلاني: ٦/٧١٨، خلاصة حكم المحدث : مرسل قوي الإسناد.
(٢)عمدة القاري، العيني: ج ١٤ / ١٤٠

وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم وامضوا قدما.

وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقتل شهيدا رضي الله عنه.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب رضي الله عنه.

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع، ثم وقف بين الصفين ودعا البراز وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه، وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين، ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه لا يقبل منه شيئا، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد وقد ميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرا لم يعهد مثله ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا، حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم محكم اليمامة وهم محكم بن الطفيل - لعنه الله - بدخولها فدخلوها، وفيها عدو الله مسيلمة - لعنه الله -.

وأدرك عبد الرحمن ابن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة - لعنه الله - وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه فتقدم إليه

وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم قاتل حمزة فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: واأمير الوضاءة قتله العبد الأسود.

فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفا، وقتل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة، فالله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس من يذكر بعد[1].

وعن الزهري: قاتل خالد مسيلمة ومن معه من بني حنيفة، وهم يومئذ أكثر العرب عددا وأشده شوكة، فاستشهد خلق كثير، وهزم الله بني حنيفة، وقتل مسيلمة، قتله وحشي بحربة.

وكان يقال: قتل وحشي خير أهل الأرض بعد رسوله صلى الله عليه وسلم شر أهل الأرض.

وعن وحشي قال: لم أر قط أصبر على الموت من أصحاب مسيلمة، ثم ذكر أنه شارك في قتل مسيلمة.

وقال ابن عون، عن موسى بن أنس، عن أبيه قال: لما كان يوم اليمامة دخل ثابت بن قيس فتحنط، ثم قام فأتى الصف والناس منهزمون فقال: هكذا عن وجوهنا، فضارب القوم ثم قال: بئسما عودتم أقرانكم، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشهد رضي الله عنه[2].

وعلى أن وصفا كان لمسيلمة هذا ولما كان كذابا أشرا! ومن قول الناس فيه: وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي - ﷺ-. وحين: بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجا. وتوضأ وسقى بوضوئه نخلا فيبست وهلكت، وأتى بولدان يبرك

([1])البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥٧

([2]) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٣ / ٣٩

عليهم فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه. ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي[1].

المبحث الثالث والعشرون: جمع القرآن الكريم

وحين استشرى القتل في الصحابة الكرام، ولاسيما يوم اليمامة ذاك. ولاسيما أيضا أنه قد استشهد سبعون من حفظة الكتاب الكريم، يوم اليمامة هذا، وحين هال عمر الفاروق ذلك؛ ومنه كانت مشورته للصديق جمع القرآن الكريم.

ويومها كلف زيدا بن ثابت بجمع القرآن العظيم، من صدور الرجال، ومن الرقاع والعسب واللخاف، ولما كان منه حرصه المطابقة، بين ما هو محفوظ في الصدور، وبين ما هو مكتوب في السطور.

ومنه أيضا كان جمع القرآن العظيم، وحين أودع بيت حفصة أم المؤمنين، بنت عمر الفاروق رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا عمل تاريخي سجله التاريخ لكل من عمر الفاروق مشيرا، ولأبي بكر عاملا ومنفذا.

وهذا أيضا عمل الشورى وبركتها، ولما كان من ثمارها هو هكذا القرار التاريخي أيضا، بجمع هذا القرآن المجيد.

ومنه اطلع الخليفة الصديق بدور جمع كتاب الله تعالى من صدور من كان قد تبقى من الحفظة؛ خشية على الكتاب أن يروح مع أهله في قبورهم.

([1]) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٥٩

ولأنه الله تعالى كان من قدره سبحانه، هو هكذا حفظ كتابه المبين، وحين قال تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٧]. وقال تعالى أيضا ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩]

ومنه فقد سخر أبا بكر لعمله هذا.

وعلى أنه لم يفت ذكر اصطفاء زيد بجمع القرآن الكريم؛ ولحديث: مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد قال: ونحن ورثناه[١].

وعن زيد بن ثابت: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم} [التوبة:

---

(١)صحيح البخاري: ٥٠٠٤

١٢٨] إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[١].

المبحث الرابع والعشرون: ردة أهل البحرين وبركة دعاء العلاء بن الحضرمي

إن ردة أهل البحرين، ولما كانت من هذا الذي لاقاه الصديق، ومن مسؤولية عظيمة، كان قد تحملها، وإذ ليس يغيب عنا، بل يحضر عزمه.

ولكنك كم رأيت هذا الهزال العقدي، الذي كان قد تملك قوما، وحين استشرى هكذا أمر الردة فيهم، فليست تكاد قد تركت قطعا من أرضه تعالى كان قد انتصب فيها لواء التوحيد، وإلا أنها عادت أدراج الجاهلية الأولى!

ولكنك رأيت ثم رأيت، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله أيضا.

وحين كانت لأهل البحرين هذه النقيصة؛ ومن ردتهم، وهم الذين كانوا يوما قد أسلموا، وعلى يد هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وإلا أنك رأيت ثم رأيت أيضا، ومن هكذا حزم أبي بكر، ومن شجاعة العلاء بن الحضرمي هذا.

وإلا أنه الإشارة واجبة، ولما كان اختيار الصديق ومن محله لهكذا صنف تقي، ولما كان العلاء بن الحضرمي به معروفا!

وهذا الذي قد قالته بنية مرة لأبيها، ولما كان منه قوله تعالى﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

---

(١)صحيح البخاري: ٤٦٧٩

وهذا الذي منه يبعث في النفوس الطمأنينة، ومن هكذا رعاية الله تعالى لعبيده، وصونه لدينه، وحفظه له، وحين قد سخر أولاء العبيد، ومرة أخرى كأسباب للقيام بهذه المسؤولية العظيمة؛ دكا لصروح الردة مرة، وعطفا على أولياء الله تعالى مرة!

ولكن هذا الذي تجدر إليه الإشارة، هو هكذا ورعه العلاء بن الحضرمي، وتقواه، وحين قد قاداه إلى أن يرفع يديه إلى السماء، لاهثا لسانه، ومخبت قلبه، وحين اشتدت بالناس الشدائد، وليجيبه ربه ومولاه الحق المبين؛ آية وبرهانا على كم كان الله تعالى مجيبا، لمن دعاه، وحين كان هذا الرب العظيم، ولا يزال آمرا عباده، ومن قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وهذا اختصار المسافات، واجتزاؤها، وحين كان من أمر الخليج سعته يومه هذا، وقياسا على سفن الناس يومهم هذا.

وحين يقيض الله تعالى عبدا كالعلاء بن الحضرمي، ومن فراسته، ومن توفيقه، وإلهامه، وأن يمشي على الماء، وكذا إبله وفرسه ورجاله، في آية أخرى، وعلى كم كان ربك بالمؤمنين رحيما، وحين قد خرجوا، ولم يخرجهم، إلا نداء ربهم الحق، ومن قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وهذا الذي يفيد منه العبيد، وحين كان اللجأ إلى الله تعالى، هو ذلكم طوق النجاة، لأولاء العباد المحاويج، إلى عطاء السماء، ظلها الوارف الجميل.

وهذا الرزق الذي قد سيق إلى الناس يومهم هذا، ومن غنائم جهادهم، وبذلهم في الله تعالى ربهم الحق المبين.

ولندع التاريخ يتحفنا، بما قد تقشعر له الألباب، وبما أمكنه أن يكون آية، وبرهانا، ودليلا على هكذا منِّ السماء، وفضله تعالى على من خرج مقاتلا، مجاهدا، غازيا؛ لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

وقد كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابي الدعوة، اتفق له في هذه الغزوة أنه نزل منزلا فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش، وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم وذلك ليلا، ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهم والغم ما لا يحد ولا يوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه فقال: أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى. قال: فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلى بالناس فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه، وجثا الناس ونصب في الدعاء ورفع يديه، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى، وهو يجتهد في الدعاء فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديرا عظيما من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكا، فسقوا الإبل عللا بعد نهل، فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية.

ثم لما اقترب من جيوش المرتدة وقد حشدوا وجمعوا خلقا عظيما نزل ونزلوا وباتوا متجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتا عالية في جيش المرتدين، فقال: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟

فقام عبد الله ابن حذف فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فوره والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلا عظيما وقل من هرب منهم واستولى على جميع أموالهم، وحواصلهم، وأثقالهم، فكانت غنيمة عظيمة جسيمة، وكان الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة من سادات القوم نائما، فقام دهشا حين اقتحم المسلمون عليهم فركب جواده فانقطع ركابه فجعل يقول: من يصلح لي ركابي؟

فجاء رجل من المسلمين في الليل فقال: أنا أصلحها لك، إرفع رجلك فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه، فقال له: أجهز علي.

فقال: لا أفعل، فوقع صريعا كلما مر به أحد يسأله أن يقتله فيأبى، حتى مر به قيس بن عاصم فقال له: أنا الحطم فاقتلني

فقتله فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله وقال: واسوأتاه لو أعلم ما به لم أحركه.

ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق، وذهب من فر منهم أو أكثرهم في البحر إلى دارين ركبوا إليها السفن.

ثم شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونقل الأثقال وفرغ من ذلك، وقال للمسلمين: إذهبوا بنا إلى دارين لنغزو من بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعا فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حكيم، يا كريم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا محيي، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل،

ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبرا، واستاق الذراري، والأنعام، والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئا سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها.

ثم قسم غنائم المسلمين فيهم فأصاب الفارس ألفين، والراجل ألفا مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع[1].

المبحث الخامس والعشرون: ما أثر بركات الأولياء؟

إن هذه بركات الأولياء، ولما كان لها أثرها الطيب، وذكرها الحميد، آية وبرهانا على صدق هذا الدين، ومن صدق وإخلاص المتحلين به أيضا، وإذ كانت سببا عظيما، يمكن أن يكون واسعا عظيما أيضا، لدعوة الناس العملية، ولربما ومن غير كلمة داعية، أو خطبة خطيب مفوه!

وهذا الذي ذكره التاريخ، وحين أسلم أحدهم؛ ومن سماعه خبر العلاء بن الحضرمي، الورع ، الزاهد، التقي، النقي هذا!

ولما كانت منه خشيته أن تطاله دعوته، فيخر؛ ومن موجبها صريعا!

وقد ذكر سيف بن عمر التميمي أنه كان مع المسلمين في هذه المواقف والمشاهد التي رأوها من أمر العلاء، وما أجرى الله على يديه من الكرامات، رجل من أهل هجر راهب فأسلم حينئذ، فقيل له: ما دعاك إلى الاسلام؟ فقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله ، لما شاهدت من الآيات، قال: وقد سمعت في الهواء وقت السحر دعاء، قالوا: وما هو؟ قال:

([1])البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٦٢

اللهم أنت الرحمن الرحيم، لا إله غيرك والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والذي لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت في شأن، وعلمت اللهم كل شيء علما، قال: فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله، قال: فحسن إسلامه وكان الصحابة يسمعون منه[١].

وعلى أنه وإذ اختلف أهل السير والتاريخ حول سنة وقوع ردة كل من أهل اليمامة والبحرين، وإلا أن خبرا ساقة الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، ولربما يعالج هذه المسألة، وحين قال: أن الفتوح في أهل الردة كلها كانت لخالد بن الوليد وغيره في سنة إحدى عشرة، إلا أمر ربيعة بن بجير؛ فإنه كان في سنة ثلاث عشرة[٢].

المبحث السادس والعشرون: إرسال جيش الفتح إلى العراق

غزوة ذات السلاسل

ومنه استمر أداء هذا الخليفة الراشد أبي بكر رضي الله عنه وكذا صاحبه وجنديه وذراعه اليمنى خالد بن الوليد؛ ولأنه الله تعالى قد اصطفاهما، ومن بعد موت نبينا ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ دفاعا عن حوزة دين رب العالمين، أمانة في أعناق أمة، كان هذا قدرها، جهاد في سبيله، وأخذ على أيدي أعدائها.

وهذا الذي كان منه مسير خالد إلى العراق فتحا وتأديبا، لأولاء نفر، كانوا قد حادوا، وعن طريق الحق والهدى قد مالوا!

---

(١)البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٦٢
(٢)تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ / ٥٢٨

وإلا أن العبقرية العسكرية الإسلامية، وحين تجلت مظاهرها، ولدى هذا الصديق الحكيم الخبير، ومن خبرته، أن يستعين بخالد، وأن نعم بالمجاهدين الأكفاء، وإلا أنه يستبعد من كان منهم قد ارتد يوما!

ولأنه ذلكم صنف أصبح ومن المنظور العسكري بحاجة إلى التمهل في استئمانه، وريثما يعود أدراجه، وليسكن الإيمان قاع ألبابهم.

ومن ثم فالتاريخ ناظر ماذا يعملون، ومن بعدها صولات وجولات، يمكن أن يستعان بهم، ومن بعد ما يرى الإمام الموفق الملهم فيهم رأيه ومن جديد!

وإلا أن هذه التعبئة كانت عل هذه الأمة قدرا مقدورا، وحين يوفق أبو بكر هذا قيامه بحوالي من عشرة غزوات، خاضها، ضد أولئك المرتدين، ومن بعد موت نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أمثالها أيضا في السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة.

وها هي السنة الثانية من ولايته أيضا؛ ورسالة إلى ولاة الأمور، ومن بعده، وأن هذه هي وظيفة الأكفاء المخلصين لربهم، وها هم، وإذ يحملون سيوفهم على ظهورهم! وإذ ليس ينام أحد منهم قرير عينه يوما، وإلا حين يقوم بهكذا الفتح المبين، ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦١].

وحين كان من فعل خالد، وكما قد وجهه أمير المؤمنين أبو بكر، وأن يكون بدؤه دعوة الناس، أو الجزية، أو القتل، وحين كانوا من أهل الكتاب. وكما أن هذه هي سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين قال: باب في ذكر أصناف الكفار ومن يجب قتالهم منهم وكيفية القتال الكفار على ثلاثة أضرب، أهل كتاب وهم اليهود والنصارى، فهؤلاء يجوز إقرارهم على دينهم ببذل الجزية. ومن له شبهة كتاب فهم

المجوس، فحكمهم حكم أهل الكتاب، يقرون أيضا على دينهم ببذل الجزية. ومن لا كتاب له ولا شبهة كتاب، وهم من عدا هؤلاء الثلاثة الأصناف، من عباد الأصنام، والأوثان، والكواكب، وغيرهم فلا يقرون على دينهم ببذل الجزية.

ومتى امتنع أهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب، من بذل الجزية، كان حكمهم حكم غيرهم من الكفار، في وجوب قتالهم، وسبي ذراريهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم وتكون فيئا.

وينبغي للإمام أن يبدأ بقتال من يليه من الكفار، الأقرب فالأقرب، والأولى أن يشحن كل طرف من أطراف بلاد الإسلام بقوم يكونون أكفاءً لمن يليهم من الكفار، ويولي عليهم أميرا عاقلا دينا خيرا شجاعا يقدم في موضع الإقدام، ويتأنى في موضع التأني.

ولا يجوز قتال أحد من الكفار إلا بعد دعائهم إلى الإسلام، وإظهار الشهادتين، والإقرار بالتوحيد، والعدل، والتزام جميع شرائع الإسلام، فمتى دعوا إلى ذلك، ولم يجيبوا حل قتالهم، ومتى لم يدعوا لم يجز قتالهم.

والداعي ينبغي أن يكون الإمام أو من يأمره الإمام.

ولا يجوز قتال النساء، فإن قاتلن المسلمين، وعاون أزواجهن، ورجالهن، أمسك عنهن، فإن اضطر إلى قتلهن جاز حينئذ قتلهن، ولم يكن به بأس.

وشرائط الذمة، الامتناع من مجاهرة المسلمين، بأكل لحم الخنزير، وشرب الخمور، وأكل الربا، ونكاح المحرمات في شريعة الإسلام، وإن لا يأووا عينا على المسلمين، ولا يعاونوا عليهم كافرا، وإن لا يستقروا

على مسلم، فمتى فعلوا شيئا من ذلك، فقد خرجوا من الذمة، وجرى عليهم أحكام الكفار الحربيين الذين لا كتاب لهم[1].

ومنه كان الخيار من ثلاث:

١- الإسلام.

٢- دفع الجزية وباعتبارهم أهل كتاب.

٣- القتال.

وكان من فعل نصارى الروم يومهم هذا قبول دفع الجزية، على ألا يسلموا إلى الله تعالى وجوههم!

وعلى أنه قد ذكر التاريخ لخالد مأثرته الخالدة، وحين قبل أحد رؤسائهم دفع الجزية، ولما قد أعلن خالد أن الغاية والهدف الأسمى هو محاولة إدخال الناس في الإسلام الحنيف الخالد. وليس مجرد أن يرضى منهم، وحسب دفع الجزية، وحتى وإن سلموا هم!

وهذا التاريخ يقول: فقبل منهم خالد وكتب لهم كتابا، ثم أقبل حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس بن حية الطائي وكان أمره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

فقال له قبيصة: مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية.

([1])السرائر، ابن إدريس الحلي: ج ٢ / ٧

فقال لهم خالد: تبا لكم إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها[1]!

ومن ثم كان انتقال خالد إلى مدائن كسرى بن هرمز، ومن بعد انتهائه من العراق، وحين كانت رسالته إليهم جميعهم بسالة الحزم، وآية الحسم، وأنه رضي الله تعالى عنه لا تأخذه هوادة من دينه، أو لين من جانب، وحين يرى رؤوسا قد أينعت، وأنه قد حان قطافها!

وأنت تتنفس، عبق قوله، وعزة رأيه، وحين قال قوله: من خالد ابن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فالحمد لله الذي فض خدمكم، وسلب ملككم، ووهن كيدكم، وإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا، أما بعد فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إلي بالرهن واعتقدوا مني الذمة، وإلا فو الذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة[2]

وعلى أن عبقرية خالد العسكرية وحين تجلت يوم تقسيمه يشه إلى ثلاث فرق !

وذا شأن عسكري هام وحتى إذا أتي على بعضه فليبق جله! وكيما لا يقدم جيشه فريسة بذات يدع إلى عدوه!

ولكن ذا العون الرباني ودائما ما يحالفنا شأن هذا الجهاد الإسلامي العالي السامق وحين يكلأ رب العزة والجلال المجاهدين ومن قوتهم ومن شربهم ومن ظلهم ايضا!

---

(1)البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ -/ ٣٧٧

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٥٥٣

وهذا الذي ذكره التاريخ أيضا مدحة وثناء جميلا: فقال: جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين، فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء، فقوي المسلمون بذلك وفرحوا فرحا شديدا[1].

ويكأن خالدا قد أبلى، وحين أبلى معه الصحب الكرام بلاء حسنا أيضا، وحين باغتوا الروم يومهم هذا، ومن ركبانهم، ومن فرسانهم، ومن رجالهم، ودوم نسائهم أو شيوخهم أو صبيانهم أو فلاحيهم الذين لم يقاتلوا معهم أولياء الله الصالحين! في إشارة إلى سمو أخلاق هذا الدين؛ ولأنه وإنما جاء رحمة للعالمين!

وحين أمكن الله تعالى خالدا هذا سيف الله تعالى المسلول، من هرمز نائب كسرى، وقتله شر قتلة؛ ولأنه عدو ربه، والمؤمنين، وحين اغتنموا منهم غنائم عظيمة، وزعها على المجاهدين، رزقا منه تعالى، لمن خرج مقاتلا مجاهدا غازيا؛ ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وحين أرسل لأبي الصديق خمس الغنائم ومن قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

وإذ كانت قلنسوة هرمز من بعث خالد، إلى أبي بكر، وإذ ردها إليه سلَبا ومنحة وهدية وفضلا، ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم: من قتل فله السلب[2].

وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلا من المشركين علا رجلا من المسلمين، فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه، فأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت،

---

(١)البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ -/ ٣٧٩
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٣٠٧

فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه، فقمت فقلت: من يشهد لي، ثم جلست، ثم قال: من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه، فقمت فقلت: من يشهد لي، ثم جلست، ثم قال الثالثة مثله، فقمت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لك يا أبا قتادة؟، فاقتصصت عليه القصة، فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي فأرضه عني، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لاها الله، إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله، يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، يعطيك سلبه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق، فأعطاه، فبعت الدرع، فابتعت به مخرفا في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام[1].

وهذا من فقه أبي بكر، ومن ثم هو أيضا، بعث للهمم، وشحذ للطاقات، ولتظل عاملة في خالد، ولا سيما أنها كانت لصنديد، وحين أمكنه منه ربه؛ آية، وحفزا آخر.

وكما أنها من الصديق كانت وساما على صدره!

وحين كان قض مضاجع الروم قضا، ولما كان قد عمل فيهم أجمعين عملا صالحا!

التاريخ يعيد نفسه: ولما كان قد سلسل منهم خلقا كُثُرَ، ولما كانت منه تسمية هذه الموقعة بذت السلاسل، يومهم هذا! وتذكيرا بنحو ذات السلاسل، يوم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون تاريخا متصلا لا انقطاع فيه!

وعلى أنه يستصحب هذا الذي كان منه انهدهاشنا وغيرنا، ولما كانت كُلًّا إلى **الروم** زحفا!

---

(1) صحيح البخاري: ٣١٤٢

وعلى أنه يستحضر أن أبا بكر كان في الأولى جنديا! وها هو الآن في الثانية هو القائد الأعلى للقوات الإسلامية المقاتلة!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب[1].

المبحث السابع والعشرون: وقعة الولجة

وحين راح خبر هزيمة الروم وإلى أردشير ملك الفرس يومه هذا، وعلى يد جند خالد، سيف الله المسلول، تحت إمرة أبي بكر، يوم المذار، وإنما لم يفته أن يعد جيشين ولما كان أحدهما بقيادة نائبه بهمن جاذويه، والآخر بقيادة الأندر زغر، ولما راح إلى زعمه أنه يمكن أن يسترد نوع مجد، كان قد فاته، يوم المذار هذا!

وسبحان الله ربنا وتعالى! ويكان التاريخ يعيد نفسه، ومن حق، ويوم أن أدى بقريش زعمهم، أنهم يمكنهم، ومن بعد أحد أن يطمعوا، ومرة أخرى، وبغزو آخر، يمنيهم، ولو بعضا، من أمانيهم! الزاعمة، الكاذبة، الخاطئة.

وحين راح إليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي عقر دارهم مرة أخرى، ومنه يوم ذات السلاسل، ومما أنف ذكره يومه، في موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات.

([1])صحيح البخاري: ١٤٩٦

وكان منه يوم ذات السلاسل يوم خالد أيضا!

ومنه هذا الذي نحن بين يديه الآن أيضا!

وحين غرهم ما قد حدث يوم مذار، وأنه يمكنهم إعادة ولو بعضا من مجد، أو ما يمكن أن يذهب غيظ قلوبهم!

ومنه كانت تعبئتهم أنفسهم بالونة اختبار! ويكأنها وهكذا وفقط هكذا!

ومنه أيضا، وحين قد سمع بهم خالد، وإلا أنه تجهز وعبأ، ومقتهم، وحين قد راح إليهم هو نفسه، وإلى عقر ديارهم، في يوم وقعة الولجة؛ ليدكهم دكا، وليثخن فيهم إثخانا أيضا!

عمل جهاز المخابرات: وعلى أن هذا هو عمل جهاز المخابرات، الذي كان زكيا يومه هذا.

وإلا فكيف راحت إلى خالد، ومن مثل هذه الأخبار؟!

ونية جيش أردشير غزو جيوش الفتح المبين يومهم هذا!

وهذا الذي نؤكده أبدا، ومن وجوب يقظة أجهزة المخابرات، وعلى اختلاف أنواعها وأسمائها؛ صونا لحقوق الأمة، وحماية لبيضة دين ربهم، وهو هذا الإسلام الحنيف الخالد!

وهذا عمل الكمائن! فن عسكري باهر، وحين أمكنه الله تعالى خالدا منه، ومن كمينين اثنين، وليأخذ الناس على غرة من أمرهم .

قطع خطوط الإمداد: وهذا الذي كان منه هزيمتهم، وإيقاع الهلاك بهم، ويوم أن كان منه موت أميرهم ومن عطشه! حبكا لمعركة كان هذا سيرها، وحين يتمكن الجيش الإسلامي الحنيف، ومن قطع خطوط

إمداد الخصم المناوئ؛ وزيادة وقع إيلام به، ولتكون الهلكة مضاعفة معه أيضا! وكيما لا تقوم لهم، ومن قائمة، يحاولون من خلالها هذا الذي زعموه، ويوم أن كان منه إفقادهم توازنهم!

وإلا أن عبقرية خالد العسكرية لم تفته زيادة تعبئة جنده، وحين أطمعهم ومن خيرات بلاد الفرس يومهم هذا! ولاستجاشة ما لديهم من إقدام مضاعف آخر، كان أدعى أن يكون درسا للقادة العسكريين من بعده، وكيما يستدعوا مكامن طاقات جنودهم، فيرغبونهم، وبما كان من خيرات بلاد عدوهم، والذي كان منه اشتداد وطيسهم وقوتهم وغلبتهم أيضا!

طرفة يوم الولجة: والذي كان منه أن بارز خالد يوم الولجة رجلا من الأعاجم يعدل بألف رجل فقتله، ثم إتكأ عليه وأتى بغدائه فأكله وهو متكئ عليه بين الصفين[1].

المبحث الثامن والعشرون: موقعة أليس

سببها: تأليب بعض نصارى العرب الفرس على المسلمين ولأنهم كانوا قد قتلوا منهم نفرا يوم الولجة.

تاريخها: شهر صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة.

وما أن علم خالد بتحركات جيش الفرس، ومعاونة نصارى العرب، وإلا أنه باغتهم، وكما هو عهدنا به كل مرة؛ ولأن الحرب خدعة، وكان من أن هم أولاء حمقهم، وحين خيبهم ربنا تعالى، ومن اجتماعهم على طعامهم، وها هم جند خالد البواسل، يجهزون عليهم حال طعامهم هذا!

ومنه كان النيل منهم سهلا يسيرا، وحين غدوا غنيمة للمسلمين!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٨٠

شأو دعاء ربنا تعالى: اللهم لك علي إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحدا أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم، ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم.

هذا دعاء خالد ربه تعالى، يوم أليس هذا، وحين اشتد الوطيس.

ولكن الله تعالى، وهو ذلكم الرب، الذي قال: ومنه فلم يبرح خالد، ولم ينتظر كثيرا، وحين أجابته السماء، ومنحته أكتافهم جمعا!

وهذا أدب المسلم مع ربه تعالى، ولا سيما وقت الشدة، ولأنه الله تعالى يجيب مضطرا، ويغيث ملهوفا، وليس من لهف أكثر، من يوم جهاد الناس، عدو الله تعالى، وعدوهم.

تفضيل الأسر على القتل: وهذا مبدأ عسكري، غاية في أدبه، وعال ومن سمته!

وحين لم تكن للمسلمين هذه الرغبة الجامحة، في مقتلة عدوهم، وبقدر ما أمكن أن يحاولوا أسرهم، ولعلهم هم أولاء الأسرى، أن يسلموا، ومن دعوتهم، وعلى جانب الاهتمام الذي ولربما لم تتوافر أسبابه، وإلا من أسر!

وهذا جانب دعوي هام، ومنضافا إلى كونه مدرسة عسكرية باهرة بامتياز!

ولأنه يمكن أن يستحصل من الأسير أخبار وأعلام، تغير من سير المعارك، وإلى جانب مصلحة المجاهدين أوفر، وأكثر، وأغزر.

وإلا أنه يقتل من امتنع من الأسر، وهذا مبدأ عسكري ماهر آخر أيضا، تفيده المدرسة العسكرية الإسلامية، ويفيده الناس أيضا، عهدا أديبا كان قد سنه خالد!

وإلا أنه قد أثخن فيمن امتنع قتلا، وحتى كانت أجسادهم أشلاء، وحين أضحى النهر دما جاريا أيضا، وبرا من الله تعالى بقسمه خالد هذا!

وهذا الذي كان منه قول منادي خالد: الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر[1].

وهذه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وحين أبر ربنا تعالى قسم خالد، وأجرى النهر ماء ممزوجا بدماء الفرس وأعوانهم، وحين أسمي هذا النهر: (نهر الدم)، تاريخا مجيدا، قد سجله التاريخ، مجدا لجند الله، وحين استعصى أعداؤهم على أن يهتدوا!

إلا أنه الله تعالى قد نفل جنده عشاء الفرس، يومهم هذا! وحين انقلب خالد إلى طعامهم، الذي كانوا قد تركوه، وليكون طعمة هنية، لجند الله تعالى، ولعلهم كانوا إليه أحوج!

وعلى كل حال، فإن هذا فقه خالدي!

ولما كان منه جوازه، ولما كان منه استنانه؛ ولأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم كان انتفل طعام خيبر لجنده، يومه هذا أيضا.

وتلك أمة بخير؛ ولطالما كان استنانها بنبيها، وممهورا بهكذا حب الاقتداء، بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أبدا!

فعن عبد الله بن مغفل، قال: أصبت جرابا من شحم، يوم خيبر، قال: فالتزمته، فقلت: لا أعطي اليوم أحدا من هذا شيئا، قال: فالتفت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما[2].

([1])فتح الباري، ابن حجر: ج ٦ / ١٨٢
([2])صحيح مسلم : ٣٤٢٣

وموضع الحجة منه عدم انكار النبي صلى الله عليه وسلم بل في رواية مسلم ما يدل على رضاه فإنه قال فيه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما[1].

و: ثانيها حديث ابن عمر كنا نصيب في مغازينا العسل والعنب فنأكله ولا نرفعه رواه يونس بن محمد عند أبي نعيم وأحمد بن إبراهيم عند الإسماعيلي كلاهما عن حماد بن زيد فزاد فيه والفواكه ورواه الإسماعيلي من طريق ابن المبارك عن حماد بن زيد بلفظ كنا نصيب العسل والسمن في المغازي فنأكله ومن طريق جرير بن حازم عن أيوب بلفظ أصبنا طعاما وأغناما يوم اليرموك فلم يقسم وهذا الموقوف لا يغاير الأول لاختلاف السياق وللأول حكم المرفوع للتصريح بكونه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما يوم اليرموك فكان بعده فهو موقوف يوافق المرفوع (قوله ولا نرفعه) أي ولا نحمله على سبيل الادخار ويحتمل أن يريد ولا نرفعه إلى متولي أمر الغنيمة أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا نستأذنه في أكله اكتفاء بما سبق منه من الإذن[2].

المبحث التاسع والعشرون: جواز التخريب لمصلحة راجحة

وهذا الذي فعله خالد يومه هذا وحين وصل إليه الخبر أن معظم من قتلوا كان من بلدة تسمى أمغيشيا!

وكيما لا يطاول أهلها، ومن بعد ذلكم مرة أخرى.

وهذا فقه عسكري باهر آخر.

ويعضد صحة مسلك خالد هذا، إقرار أبي بكر له، ولا سيما أنه لم يسجل التاريخ له اعتراضا على هذا.

---

(1)صحيح مسلم : ٣٤٢٣

(2)فتح الباري، ابن حجر: ج ٦ / ١٨٢

وهذا أيضا مما يعضد جانبا آخر ليس يقل أهمية، بل يزيد، وحين يطلع القائد الميداني بصلاحيات أوسع، تمهد له طريقه، وتعبد له سبيله، فليس يكون أمام قرارات إدارية جامدة، ولربما كان في اتباعها وحدها، دونما صلاحيات يراها الميدان، وإلا أن تكون أشد فتكا من قصم عدو زنديق!

وهذا الذي كان منه، هو هذا الرزق الذي رزقه، ومن لدن قرار، كان من بركته هو هذا!

ولكنك قد وقفت على كم كان الجهاد في سبيل الله تعالى سببا، ومن أسباب رزق العباد، وما عليهم إذن إلا أن يطلعوا بمهامهم نحوه؛ دينا، ومنهجا، وسبيلا.

ومنه هو الذي كان من صلاحيات قائد الميدان، ومن توزيع غنائم حربه .

ولكنك قد وقفت على كيف كان الإسراع، ومن توزيعها؛ لتعمل في الجند عملها؛ مكافأة، وعملا حسنا.

وإذ كانت ومن مثابة أجورهم، أو إن شئت عدها كذلك؛ ولأنهم لم يخرجوا أجلها أول مرة، وإنما ولما كان اعتبارها كذلكم، ومن حيث قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوما: أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه[1].

ومنه كان اختيار الأمناء، وحين وقع اختيار خالد على جندل من بني عجل؛ لإيصال المغانم أموالها وسبيها إلى أبي بكر!

ولأنه كان أمينا صارما، وإنما كافأه الصديق أيضا؛ عملا حسنا آخر؛ وليشعر الناس، وانهم شركاء، ولما كانوا؛ ومن كونهم أمناء أيضا!

والذي منه أيضا كانت مكافأته إحدى السبايا؛ وإمعانا في إكرامه؛ ولما كان أهلا لأداء مهامه.

([1])صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٩٩٥

ولكنه لم يفت، وكما لم يفت الصديق، أن أمهر خالدا بثنائه، ومن إشادة به، وحين قال: الصديق: يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراذيله، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد[1].

ومن ثم كان توجه خالد إلى النجف مسيرة جهاده في الله تعالى حق جهاده أيضا.

ولما كان من أمره مقابلة عمرو بن عبد المسيح ابن نقيلة، هذا الذي وجد معه كيسا به سم، وحتى إذا رأى من نفسه إشرافا على الهلاك، وفي إشارة إلى هلاكه، على يد خالد، أكل سمه هذا! وعلى ألا يقع تحت يديه أسيرا أو قتيلا!

وإلا أن خالدا قام بتناوله! ومن بعد دعاء ربه تعالى، ومن علامة على بركات أولياء الله تعالى الصالحين! وحين تتغير، ومن بين أيديهم أسبابا، أودعها الله تعالى بعضا من خلقه!

وهو هذا السم الذي منه يكون القتل المحتدم!

ويكأنها آيات ربنا تعالى، وحين يكرم بها وليا، وإنما لتكون أيضا داعية للحق، الذي جاؤوا به، ولعل أحدا قد رآها، ألا يصمد، وإلا وجدته مسلما!

أو من أقلها، ان ينشغل بها، عن مقاتلة أولاء الأولياء الصالحين!

وحين قال خالد، وإذ يتناول هذا السم الناقع، ويكأنه تحول ترياقا، ومن دعائه هذا: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم. قال: وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه فبادرهم فابتلعه[1].

([1])البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٨١

وهذا الذي قلناه، هو الذي قاله عمرو بن عبد المسيح ابن نقيلة هذا: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد، ثم التفت إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالا من هذا[٢].

وهذا الذي منه يحرص الدعاة، أن يكونوا قوما صالحين؛ ولعل الله تعالى أن يجري على أيديهم، ومن كمثل هذه البركات، فتعمل في الخصوم عملها.

وعلى أن فعل خالد هذا، ليس يقتدى؛ وخشية ألا يكون فاعل هذا، وإذ ليس على ما كان عليه خالد! فيعمل عمله فيه، ويكون قد لقي حتفه، منتحرا فيذوق؛ ومن سببه، وبال أمره!

المبحث الثلاثون: علم نبوة ضاف

ولكن هذا خالدا وحين راح إلى الحيرة، وقد تم فتحها على يديه؛ وعلما من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويوم أن قال قوله هذا: مثلت لي الحيرة كأنياب الكلاب و إنكم ستفتحونها ". وإذ كان منه تبشيره ومن ثم هذا الذي كان منه، طلب من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويومها أن يهب له ابنة ملكهم يومهم هذا!

وهذا الذي وقع يوم فتح خالد لهذه الحيرة، وليهب هذه المرأة كرامة بنت عبد المسيح إلى رجل من الصحابة يقال له: شويل، وطالبا من خالد طلبه هذا!

وعلى ما حكى أهل السير أيضا حكاية هذه المرأة، ولما قد بلغت يومها هذا الثمانين سنة!

وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فذكره). فقام رجل فقال: هب لي يا رسول الله ابنة بقيلة، فقال: " هي لك "، فأعطوها إياه، فجاء أبوها فقال: أتبعنيها؟ فقال: نعم: قال:

---

(١)البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٨٢
(٢) المرجع السابق: ج٦ / ٣٨٢

بكم؟ قال: احتكم ما شئت. قال: بألف درهم. قال: قد أخذتها. فقيل: لو قلت ثلاثين ألفا. قال: و هل عدد أكثر من ألف؟ [1].

المبحث الواحد والثلاثون: معركة ذات العيون

واصل سيف الله المسلول خالد بن الوليد زحفه، ولما كان مقصده الأنبار هذه المرة، ولما قد وجدها محصنة، ومحاطة بخندق، وإذ لم ينس التاريخ يوم الخندق، يوم الأحزاب، وكان أمهر خالد خطته بمحاصرة القوم وخندقهم يومهم هذا!

وهذا فن عسكري، وحين باغتهم أول المرة، وهذا جانب هام، وإذ يعمل في الخصم عمله، فيرجه رجا، ويجلجله جلجلة!

ثم إن هذه المحاصرة، وإذ تفقده صوابه أيضا، ولما كان منها عامل نفسي مرير، يعيشه الخصم، وإذ قد فت في عضده.

ولما ينضاف إليه هو هكذا قطع خطوط الإمداد عنه؛ فيزداد فقد اتزانه وصوابه؛ ما يمهره خارا، ساقطا، بين يدي خالد وجنده!

ولكن فنا عسكريا آخر قد كان أوقع، وحين كان الخندق ليس مانعا للنيل من أهل الأنبار يومهم هذا!

وإذ أخذ خالد وجنده يرمونهم بالنبال، في عيونهم، حتى فقأوا منهم عيون ألف رجل؛ ومما كان له أثره في إنهاك القوم، ويكأنهم صرعى، ويكأنهم أعجاز نخل خاوية!

([1])المعجم الكبير ، الطبراني: (١٧/ ٨١ / ١٨٣)، والبيهقي في " السنن " (٩/ ١٣٦) و " الدلائل " (٦/ ٣٢٦) من طرق أخرى عن العدني به.

وهذا الذي دفع شيرزاذ، قائد جيش الأنبار، إلى مراسلة خالد، على الصلح، فنا كان خالديا، عسكريا، ماهرا!

وإلا أن خالدا كان قد شرط شروطا أعجزت شيرزاذ قائد ميدان الأنبار، فرفض الصلح من موجبها!

والذي كان منه حيلة عسكرية أشد مهارة، وحين ذبح خالد، ومن عتاق الإبل! ومما ليست تصلح للعمل، وإن شئت فقل، وحين أنهكتها أعمارها، وأعمالها!

ومن ثم رده بها الخندق!

وهذا فن عسكري باهر آخر، وإذ يتصرف قائد الميدان وحسبما معه من أعطيات، ومما هو متاح له أن يتخذه من قرار حاسم، يغير موازين القوى لصالحه!

وهذا الذي كان منه اضطرار شيرزاذ قائد ميدان الأنبار أن يقبل صلحا، وأن يحني جبينا! وعلى شرط خالد الأول!

وهو الذي كان منه مغادرة المدينة، وتسليمها إلى خالد وجنده، فتحا كان على أيديهم مبينا.

وحين كان من بنود عقد الصلح هذا، أن يؤمن خالد خروج شيرزاذ قائد جيش الأنبار سالما، فأوفاه عقده!

ولكن أهل الأنبار كانوا قد نقضوا عهدهم، ومن بعد صلحهم، ولم يتبق إلا قوم آخرون، كانوا قد صالحوا خالدا، كأهل البوازيج، وبانقيا.

وحين فتح خالد الأنبار، وإنما ولّى عليها الزبرقان بن بدر، أحد جنده الأمناء الأقوياء، ومن دينهم، ومن عزتهم، ومن أنفتهم أيضا.

وهذا برهان حسن سير وأداء العمل الإداري المحكم، والذ ي به تنتظم أمور الدولة، وحين ليس يتركها الفاتحون هملا، وإنما يولون عليها من يصلح أمورها، ويقوم على شؤونها.

وهذا الذي فعله خالد؛ ولأنه أوقات الجيوش، وإنما هي للغزو والفتح والمقاتلة، ومن ثم يتركون مهام إدارة البلاد المفتوحة، لمن كان بها خبيرا، وكما أنهم هم للفتح كانوا خبراءه!

المبحث الثاني والثلاثون: فتح عين التمر

إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدا: هذا قول أحد العربان، يوم ملاقاة خالد أهل عين التمر، وحين كانوا خليطا من العرب ومن غيرهم.

وهذا قول ولاشك فيه حكمة، من عمل، وحين كان أهل كل محلة أعلم بحالهم، وما يصلحهم، دون غيرهم.

وهذا أمر اجتماعي، منه، وبه يساس الناس.

وهذا الذي كان منه هدي هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أن كان يعين على القوم واحدا منهم أعلم بهم. وما يوم قريظة ببعيد، وحين حكم فيه واحدا منهم، هو سعد بن معاذ رضي الله عنه. وغيره، ومما سعدت به موسوعة السيرة النبوية أحداث ودلالات.

ويكأنه أيضا، وعلى بساط آخر، وإنما هنالك قواعد عامة، تحكم المسألة، وبغض الطرف عن أطراف العلاقة فيها، وإن بقيت خوالج الاجتماع قائمة.

وهذا الذي كان منه مواجهة عقة أمير قومه العربان يومه هذا خالدا، وحين أقبض عليه خالد قبضته، فأوقعه أسيرا ومن أول الوهلة! وليقع الناس ومن بعد قائدهم ارتالا قبضة أسر خالد وجنده!

وهذا فن عسكري باهر، وحين كان من أسر القائد عملا مبهرا، ومنه تتساقط جنده، ومن بعده غما ومن غم آخر، مركبا أيضا!

وبه يعتبر تاريخ خالد هذا العسكري مدرسة وحده، وحين يطالعنا ومن كل فج! بعبقرياته المجيدة، فضلا من الله تعالى ورضوانا!

وحينها قد علم عقة مقالته: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدا! وحين كان خالد بها أوعى!

إحفظوا مكانكم فإني حامل: وهذا فن عسكري باهر آخر، ومنه لزوم كل جنبة لمهامها الموكلة إليها سلفا؛ ولأن درس يوم أحد لازال ماثلا، وإنه ليست هنالك من دواع لتكراره مرة أخرى.

ومنه كان أمره لمجنبتي جيشه لزوم قواعدهم، وإن هو عامل ما عمل!

وهذا الذي كان منه حمله على عقة آسرا إياه وها هما مجنبتاه، كل على ما قد رسم له سلفا!

وها الذي عمل في مهران بن بهرام صاحب عين التمر عمله، وحين قد حمله أسر عقة على الهرب من حصنه وتركه؛ وكيما لايحتضنه خالد أسيرا مثله أيضا!

وكان منه أن فلول النصارى الباقين، وحين وجدوا الحصن مفتوحا، ومن بعد هرب مهران، وتركه مفتوحا!

وهذا فن عسكري باهر، ولما كان منه وقوع فلولهم فيه؛ وكيما يكونوا طعمة للفاتحين، أسرا كان أو قتلا، وحسبما رأى القائد يومه هذا! عملا عسكريا ممتازا أيضا.

وحينها قد (عبى خالد جنده وقال لمجنبتيه اكفونا ما عنده فإني حامل ووكل بنفسه حوامي ثم حمل وعقة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرا وانهزم صفه من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر وهرب بجير

والهذيل واتبعهم المسلمون ولما جاء الخبر مهران هرب في جنده وتركوا الحصن ولما انتهت فلال عقة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به وأقبل خالد في الناس حتى ينزل على الحصن ومعه عقة أسير وعمرو بن الصعق وهم يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير من العرب فلما رأوه يحاولهم سألوه الأمان فأبى إلا على حكمه فسلسوا له به فلما فتحوا دفعهم إلى المسلمين فصاروا مساكا وأمر خالد بعقة وكان خفير القوم فضرت عنقه ليوئس الأسراء من الحياة ولما رآه الأسراء مطروحا على الجسر يئسوا من الحياة ثم دعا بعمرو بن الصعق فضرب عنقه وضرب أعناق أهل الحصن أجمعين وسبى كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه ووجد في بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال ما أنتم قالوا رهن فقسمهم في أهل البلاء)[1]

وأرسل خالد خمس الغنائم إلى الصديق، مع الوليد بن عقبة، فردها مددا إلى جيش دومة الجندل، وحين كانت محاصرة أيضا، ومن عياض بن غنم قائد الجيش الإسلامي الفاتح يومه هذا.

وكان منه طلبه عونا وإذ أرسل إليه خالد مددا عسكريا أرتالا، ومن بعد فتحه لعين التمر تاريخا كان مجيدا!

المبحث الثالث والثلاثون: فتح دومة الجندل

وحين فرغ سيف الله المسلول من فتح عين التمر ومن ثم توجه لى دومة الجندل وعلى ما يبدو مساعدة المجاهدين هناك.

وهذا فن عسكري باهر بخر ولما كان من شان جيش قد انتصر وغلا انه يروح عونا لاخيه هناك وفي محلة أخرى عونا ومساعدا ومؤازرا ونصيرا.

([1])تاريخ الطبري: ٢ / ٣٢٤

ومنه كان الجيش جيشين، وهو فن عسكري للإسلام سبقه فيه، وحتى يكونا عونا، وحتى لا يكونان صيدا!

ولكن الذي يوقف عنده هو هذا رأي أكيدر بن عبد الملك أحد زعماء القوم في دزمة الجندل يومه هذا ومن خبره ان خالدا وإذ لم يدخل معركة خاسرة يوما بل منتصره كاسحة هازمة!

وحين كان هذا قوله التاريخي: أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم[1].

ومنه كان نصحه للخائبين من بني قومه أن يصالحوا خالدا وحين كان من وكستهم أنهم أبوا فأصبحوا صيدا ثمينا، وإنما وسراري لهكذا جند رجل خلده التاريخ ذكره ومن في عدو الله وعدوه يومه هذا!

المبحث الرابع والثلاثون: فتح الحصيد والمضيح

ويستحضر الموقف يوم الأحزاب، ويوم غيره، ومن تأليب الكفر بعضه بعضا، على هذه الدولة الإسلامية الناشئة، وعلى هذه الفئة المؤمنة الوليدة الراشدة، وإذ يريدون أن يطفئوا نور الله تعالى.

ولكن الله تعالى قد قيض لدينه من يشاء من عبيده، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهذا الذي حدث، وحين علم الأعاجم استيطان خالد دومة الجندل، ورافعا فيها علم الخير وتاج البر والهدى والتقوى.

([1])تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ / ٥٧٨

وإلا أنهم لم يهدأ لهم بالهم، ولم يقف بهم غيهم، وعند هزيمتهم، وإذ كان لزاما أن يعوا الدرس! ولكنه هو هكذا الشيطان، وحين يزين لأوليائه سوء أعمالهم؛ وليخبطوا خبط عشواء مرة، أو مرتين!

ومنه كان تأليب الأعاجم عرب الجاهلية الأولى، وما تبقى من فلولهم استنصارهم بعضهم بعضا، مواجهة هذا القائد، الذي قد سله ربه ومولاه الحق المبين، سيفا مصلتا على رقاب المعاندين!

وإذ لم يسكت خالد، وإنما وكما هو عهده أبدا، وإلا أن يبغت القوم، ومن عقر ديارهم!

وحين لم ينتظرهم أن يأتوا، وإذ إنه وكما هو مقرر في أبجديات العمل العسكري، وإنما وكما قيل إن الهجوم خير وسيلة للدفاع!

وهذا مبدأ عسكري محكم، وإذ كان نظاما لخالد هذا يومه، وإده وكما أنه كان ماضيه، وإذ نرى أفقا يحكي حكاية أنه مستقبله أيضا!

وهذا الذي كان منه أن أناب على كل محلة واليها، ومن ثم أراد الزحف إلى ما تبقى من مدائن كسرى!

ولأن هذا شأن عسكري خطير؛ ولأن القائد العام للقوات المسلحة، وإنه وإن منحته القيادة العليا رخصه وصلاحياته، وإلا أنه يبقى أن قرارات الحسم، وزمنه، كمثل مباغتة فلول كسرى، ومن مدائنه الهشة، الباقية! وإنما يحتاج إلى رجوع القائد العام إلى القائد الأعلى!

وهذا الذي كان منه رجوع سيف الله خالد إلى الخليفة الصديق أبي بكر؛ يتحصل منه قراره، ويهتدي منه، ومن توجيهاته الحكيمة الرشيدة!

وهذا شأن المؤسسة العسكرية، وإذ كان من ألف بائها، هو هذه التشاور، ولما كان من مبادئها هو ذلكم عدم الانفراد برأي!

غير أن مداهمة الخطب، ولزوم اتخاذ القرار، لم يسعف خالدا، أن يتم مهمة المشاورة، ولما كانت أجهزة الاستطلاع قد أنبأته نبأها! أن القوم قد جاؤوا! ومنه لزم جهادهم وقتالهم ووقفهم عند حدهم.

وهو الذي كان وأن أعاد خالد ومن سرعة اتخاذ قراره تنظيم صفوفه، بتولية هذا هذه المجنبة، وتأمير هذا هذه المجنبة!

وحتى ألفيناهم صفا واحدا كالبنيان المرصوص ومن قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤].

وهذا هو الشأن ولما كان أمره تعالى القدري أن ينصر فئة، وإنما خرج ويوم خروجها وإلا لإعلاء كلمته تعالى.

وها هو نصره تعالى المؤزر، وحين كان حليفا لخالد وجنده وأمرائه، تصديقا لوعد الله تعالى القائل: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وهذا الذي حدث يوم التقى الجمعان بالحصيد، واسما كان على مسمى؛ ولما كان منه حصاد جند الله تعالى لأعداء الله تعالى، قولا واحدا، وإذ ليس له من ثان!

وإذ لسنا ننسى بل نذكر، وكما أنف تأمين خالد للحيرة، وإن كان قد غادرها هو، وإنما قد تأمن جانبها؛ ومن قرار خالد، بتأمير رجل من أهلها، وكما هو القادة الملهمين!

وهذا فن إداري، وكما أنه عهد عسكري، بتأمين ما قد به ظفر، والقيام على ما قد به قرر!

وها هو القائد القعقاع بن عمرو! وما أدراك ما القعقاع بن عمرو؟

إنه الذي أمره خالد يوم الحصيد على جنده!

إنه الذي داس بساط كسرى ومن راحلته!

إنه الذي راح وقد جلس أمام كسرى وعلى كرسيه! ندا بنده!

وهذا الذي كان منه هروب الأعاجم، وما تبقى معهم من فلول الأعراب، وحين تحصنوا بالمضيح، ولما كانوا قد حصدهم خالد حصدا، وحين تتبعهم جمعهم، ولم يبق منهم أحدا، وإلا نذرا يسيرا!

وإلا أن اختيار وقت المحاربة هذا راجع ومن مبدئه ومن انتهائه، إلى توفيق رب العزة والجلال. في الأولى وفي الآخرة أيضا!

وإذ ليس يملك أحد من نواصي الأمور من شيئ؛ ولأن الأمور كلها وأزمتها بيد الله تعالى القدير!

وحين باغتهم خالد وجنده، وقت نومهم! فدكهم دكة واحدة! ولم يبق منهم أحدا، وإلا ما كان من قلة قد شردت!

وهذا سجل تاريخي ألمعي لخالد! وحين باغت القوم هذا الدعي حرقوص بن النعمان النمري، ولما كان جليس أسرته يعاقرون خمرهم! وإذ هم يتلاومون وهل هذا وقت المعاقرة؟! وقد أقبلت جيوش خالد الكاسرة!

وإلا أن الرجل نطق الحق! وحين أوحي إليه ما أوحى لأسرته، وأن اشربوا؛ ولعلها آخر معاقرة!

وفي إشارة إلى نبوءة موته كافرا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهذا الذي سجله التاريخ أن: حرقوص بن النعمان النمري وحوله بنوه وبناته وامرأته وقد وضع لهم جفنة من خمر وهم يقولون: أحد يشرب هذه الساعة وهذه جيوش خالد قد أقبلت؟

فقال لهم: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمرا بعدها فشربوا وجعل يقول:

ألا يا اسقياني قبل نائرة الفجر * لعل منايانا قريب ولا ندري

قال: فهجم الناس عليه فضرب رجل رأسه فإذا هو في جفنته، وأخذت بنوه وبناته وامرأته [1].

المبحث الخامس والثلاثون: أمة الحق ورعيل العدل!

وحين قد قتل اثنان، كانا قد عاهدهما الصديق، وعلى غير علم ممن قتل كل واحد منهما، وعلى غير علم من خالد أيضا.

وحين جاء الخبر إلى الصديق أوداهما! عدلا عرف به ديننا، ونصفة قام عليها إسلامنا؛ ولأن العدل قامت عليه السماوات والأرض أيضا!

وهذا الذي كان منه كلام عمر الفاروق عن خالد، وكما تكلم فيه يوم مالك بن نويرة.

ولكن الصديق وهو هذا الحكيم يلتمس الأعذار، ويقيم لها سوقها، وحين كان خالد رشيدا، ولما كان في الله تعالى بذله، وإلا أنه يمكن أن تقع ومن كمثل هذه الحوادث، وإما تأويلا، وإما جهلا، وإما لمصلحة، يراها قائد الميدان، وهكذا!

([1]) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢ / ٣٩٦:

وهذا الذي دفع الصديق بتأويل فعل الناس يومهم هذا، وإذ ينسب العمل إلى القائد، ولئن قام به بعض جنده، وإن كان دون علمه أيضا؛ ضبطا للأنظمة، وحسن عمل الهرم الإداري أيضا!

ومنه كان قول الصديق، وبنبيه مستنا: كذلك يلقى من يساكن أهل الحرب في ديارهم، أي الذنب لهما في مجاورتهما المشركين[١].

وفي إشارة إلى حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العقل وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا يا رسول الله ولم قال لا تراءى ناراهما[٢].

المبحث السادس والثلاثون: وقعة الفراض

ولكنك رأيت ثم رأيت كيف كان هذا الجيل يومه هذا؟!

وإذ عاش حياته كلها لله تعالى!

وإذ رأيتهم خارج بيوتهم، وتاركي منازلهم، زمانهم هذا!

فهذا خالد وجنده، وإذ رأيتهم على تخوم فارس والروم، طيلة سنتين كاملتين، ومن عمر خلافة هذا الصديق، ومن قبل ذلك مع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يغزون هنا، ويفتحون هناك، ويدكون عروش كفر هنالك!

وما ضرهم، بل نفعهم، وحين علموا أن الحق لله.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ / ٣٨٧

(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ١٦٠٤، خلاصة حكم المحدث: صحيح دون الأمر بنصف العقل.

وهذا خالد يحالفنا هذه المرة إلى الفراض، وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، ولما يقض بها شهر رمضان كاملا، معبئا نفسه، وجنده معه!

ولكننا عرفنا كيف سجل التاريخ لخالد فطره شهر رمضان هذا كله؛ ولاعتبار السفر، وأن نعم،

وهذا كان فقه الناس يومهم هذا أيضا.

ولكنه وقد ينضاف إليه إجهادهم، ومظنة ضعفهم، وفيما لو أصبحوا صياما، ولربما أثر ذلك في قوتهم، واستعدادهم لملاقاة عدو الله وعدوهم. فقها كانوا به يستنيرون، وعلما كانوا به يهتدون!

ولكن الروم كانوا قد غاضبوا خالدا، وحين علمهم جهازيته!

ولما أضحى الفرات مانعا طبيعيا، أن يهجم أحد الفريقين على الآخر يومه هذا!

ولكن الله تعالى، وحين أوقع الروم في مهلكتهم بأنفسهم، وحين عبروا الفرات هم! وحينها ولا تسل عن مائة ألف أو يزيدون! كان حصد خالد منهم!

ولكن هذه عسكرة خالد بالفراض، عشرة أيام كاملة؛ ولمتابعة آثار فتحه، وقد تنجم ناجمة، أو ترجف راجفة، أو تطرا طارئة، ومن ثم كان هذا عملا عسكريا باهرا، فيطهر القائد وجنده آثار العدوان، ويزيلون أطلال الخصوم؛ وكيما تكون مدينتهم فاضلة، وريثما يستتب بها أمن القوات المجاهدة!

ولكن خالدا، وحين رأى الرجوع إلى الحيرة، ومن بعض جنده، وبعد استتاب أمن الفراض، وإلا أنه كان قد عزم الحج عامه هذا!

وهذا قرار كان قد اتخذه، ودون مشاورة الصديق! وإلا أن الصديق، وأن نعم عاتبه، ولكنه لم يعاقبه!

وعلى أن الصديق ترك لنا هكذا إرثا، وكيف تدار العقول، وكيف تساس الأمور!

وإذ كيف كان لخالد، وأن يحدث بنعمة مولاه تعالى الحق المبين، ولا يحملنه شيء من عجب، وإنما المنة في هذا كله لله تعالى.

وهذا تذكير الرعية بالحق، ولاسيما القائد منهم، وخاصة وإذا كان ومن كمثل خالد!

وإذ ها نحن أمام حوالي سنتين إلا قليلا، ومن يوم وفاة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى يوم حج خالد هذا، وإذ كان هذا عمر خلافة الصديق، إلا قليلا، والرجل خالد نابذ هنا، وغاز هناك، وفاتح هنالك، ومن سائر بلاد الفرس والروم، كانت له بصماته الخالدة!

وهو الأمر الذ ي ليس يدور بخلد أحد حسن الظن أن يكون بخالد ولو من برهة قد وسوس إليه شيطانه المن والأذى!

وإلا أن الحيطة كانت واجبة، وحين رآها هكذا الصديق، فينصح، ويوجه، ويشيد أيضا.

وحين قال لخالد قوله هذا: وإن الجموع لم تشج بعون الله شجيك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء[1].

والخلاف دائر وهل حج أبو بكر الصديق السنة الثانية عشرة أم لا؟

ومن ذهب إلى أنه رضي الله عنه، وإنما لم يحج إلا العام التاسع، ويوم أن أرسله النبي محمد صلى الله عليه وسلم أميرا على الحج عامه هذا.

([1])تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٥٨٤

ومن ذهب إلى أنه حج العام الثاني عشر، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

المبحث السابع والثلاثون: فتح الشام

موقعة اليرموك

إني سهم من سهام الإسلام

هذا قول عمرو بن العاص، وحين كانت رؤية أبي بكر، توليته على الشام فتحا، ومن بعد فراغه، من فتح العراق وتخومها، قيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد.

وهذا عمل إداري عسكري بامتياز، وحين يجدد القائد الأعلى للقوات المسلحة الدماء، في عروق قادته أجمعهم، وليس يقتصر على من كمثل سيف الله خالد!

ولأن هذه الأمة ولادة خير وخيرين، ومن قادة، ومن جند، ومن سواهم، وعلى أعلى طراز، وإن شئت فقل.

ولكن أبا بكر كان فقيها جد ما يكون للفقه موضع او موئل! ولما كان من فقهه هو ذلكم عمل بقول الله تعالى: يلونكم

ولأن الأول فالأول أولى!

ولأن إزاحة الخطر عن تخوم الدولة الإسلامية الناشئة الوليدة أمر فطن؛ لأن ضرب معاقل الشر في أماكن قريبة من حدود هذه الدولة يجعل طامعا في مخبأه، وليس يكاد يظهر من شوكة، وفضلا عن غفلة، لأولاء الجند الحارسين الساهرين.

وهذا الذي كان منه وقوع اختياره على عمرو بن العاص، قائدا لجيش فتح الشام. ولما كان هذا الرجل أمينا، ومن أمناء القادة الميدانيين، وحين خصه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قول أبي بكر: إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ مرة، وسماه لك أخرى وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك[١].

وليكون هكذا هو رد عمرو بن العاص هذا، سمعا وشرفا وطاعة.

وحين قد سجل له التاريخ توقيعه هذا، تلبية من سرعة، وسمعا من محبة وقبول ورضا!

وهذا هو عمل المجاهد المقاتل الغازي في سبيل الله تعالى مولاه الحق المبين، ولما ترفع من شأنه أمته، ولما يجدوا فيه أيضا طاعته وإقدامه ومحبته.

وهذا الذي كان قد سجلته السجلات التاريخية، وحين قال عمرو قوله هذا: إني سهم من سهام الإسلام وأنت عبد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها فارم بي فيها[٢].

ولعل هذا الأمر الذي أشار إليه خطاب أبي بكر إلى عمرو هو ذلكم تولية النبي صلى الله عليه وسلم أرض عمان له.

ويكأن هذا الأمر الذي خيره أبوبكر بينهما، وهو ذلكم الجهاد الذي هو بحق خير للعبيد، لحياتهم ويوم معادهم أيضا!

وهذه جزالة الرأي، وحصافة التوجيه!

---

(١)البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٧ / ٥

(٢) المرجع السابق: ج ٧ / ٥

وحين يستدعي القائد خلجات البذل من نفوس جنده، ولما كان منه إقبالهم، بلا إدبار، وبذلهم، ومغامرة الأخطار!

ويكأن أبابكر أراد أن يتحسس مشاعر عمرو يومه هذا، وإذ كيف يفاجئه، وها هو مُوَلًّى من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وإذ كيف لا يوليه، وها هو الذي أثبت كفاءة عظيمة، ويوم أن ولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة يوم ذات السلاسل!؟!

ويوم أن كان فيها كل من أبي بكر وعمر جنديين، ويتأمر عليهما عمرو بن العاص مرة! وأبو عبيدة بن الجراح مرة!

وهذه هي أمتنا، وحين رغبت في جهادها، يوم أن استوى لديها الساقة كالمقدمة من الجيش تماما!

المبحث الثامن والثلاثون: تحفيز القائد

وهذا الذي كان منه، وحين ولى أبو بكر الصديق عمرو بن العاص وكذا الوليد بن عقبة؛ أداء هذه المهمة التاريخية المجيدة، والذي كان منه تحفيزه قادة جنده، وأمراء فتح الشام يومهم هذا؛ ولأن موقعة اليرموك هذه، وإذ كانت بمثابة فتح مجيد، كان ولازالت أصداؤه قائمة! وما قامت السماوات والأرض أيضا.

وإذ ها هي بلاد الشام، في نور هذا الدين سارية، قائمة، سابحة، مسبحة أيضا!

وهذا الذي كان منه قوله رضي الله عنه: ألا لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ، إلا أنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا إيمان لمن خشيه

له، ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به هي النجاة التي دل الله عليها إذ نجى بها من الخزي، والحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة[1].

المبحث التاسع والثلاثون: أبو بكر يمشي ويزيد يركب!

ثم إن الصديق قد قلد أمراء عدة؛ للسير نحو الشام، ولم يكتف بقائد واحد، أو اثنين، بل جمع منهم.

وهذا فن عسكري باهر آخر؛ وكيما لا تتبعثر المهام، أو تثاقل بالقائد الواحد، أو القائدين، ومن كمثل نيل من أحدهما، فيبقى الآخر سندا وعونا، ومن رسالته التي كلف بها أيضا.

وهذا سبق عسكري إسلامي فريد! وحين كان منه تقسيم الجيوش، وإلى أقسامها المعروفة يوم الناس هذا، ولا سيما ولما يكون لكل منها من مهماته، ما يجعله رأسا للخير، ومنبعا للهدى في أمته!

ولكن هذا الهدي الصديقي كان باهرا أيضا؛ ولما كان منه توزيع جيوشه، وجعل كل جيش منها على ناحية!

ولما كان هذا من جمال الاستنباط من قوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧].

ويوم ان عقد لواء يزيد بن أبي سفيان، ومعه سهيل بن عمرون وغذ خرج أبو بكر ماشيا! وها هو يزيد راكبا!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٧ / ٦

وإذ نقد للتاريخ هكذا صورة فريدة حكاها هذا الجيل وحين مشى قائده الأعلى للوات المسلحة وغذ ها هو نائبه يزيد راكب راحلته!

وإن قلت تواضع، ولربما لم يكف!

وغذا قلت تقدير نائب الجهاد، ولربما لم يفِ!

وإذا قلت هذه هي تربية مدرسة النبوة الأولى، وهذا الذي يشفي!

ولكن أبا بكر قد أوصى يزيدا وغيره، بفنون قتاله، وثقته في وعد ربه!

وإذ كانت مدرستنا العسكرية فريدة النوع، عظيمة القدر؛ ومن إحكامها تخطيطها، وحين لم يفتها الإمداد، ولما كان من أمر التخطيط المحكم النافذ، أنه لم يرسل جيشه مرة واحدة مع يزيد! وخشية أن، وإلا أن!

وهذا عمل هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة الإسلامية العريقة.

وعلى أنك وحين تقف وإنما تقف ذاهلا، على هكذا، وكيف كان عدد مجاهدي جيش المسلمين يوم اليرموك؟! ومن تراوح بين ستة وثلاثين ألفا وبين سبعة وعشرين ألفا، وذلك مقابلة جيش الروم وحين بلغ مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مقيد، وأربعون ألف مسلسل للموت، وأربعون ألفا مربطون بالعمائم؛ لئلا يفروا، وثمانون ألف راجل، وقيل: كانوا مائة ألف[1].

ومنه، فخرجت الروم في تعبية لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين، وقال: إن عدوكم كثير، وليس تعبية أكثر في رأي العين من

(1)كتاب الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير: ٢/٢٥٥

الكراديس. فجعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان على كردوس القعقاع بن عمرو، وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان، وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاص أبو سفيان بن حرب، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود[1].

وهذه ثقة القائد خالد، ومن وعد به تعالى، وحين قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإذ كانت الثقة عاملة في الناس عملها، وحين كانت هذه المداخلة، وحين قال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان[2].

وهكذا كان قد تم فتح بلاد الشام، وإن فضلا راجعا لأولاء الجند وقادتهم، وليهنأ مسلم عنهم قد أخبر، وليسعد حنيفي فيهم قد أنبأ! ومن نبأ الصدق الذي كانوا به يتصفون!

فهذا عمرو بن العاص، وهذا يزيد بن أبي سفيان، وهذا معاوية بن أبي سفيان، الخليفة يوما! وهذا شرحبيل بن حسنة، وغيرهم، ممن أبلوا البلاء الحسن في ربهم الحق المبين، ولما كان فتحهم منح السماء، وجائزة ربهم الرحمن الرحيم أيضا.

والكردوس: الخيل العظيمة، وقيل: القطعة من الخيل العظيمة، والكراديس: الفرق منهم. ويقال: كردس القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة[1].

([1]) المرجع السابق: ٤١١

([2])كتاب الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير: ٢/٢٥٥

المبحث الأربعون: كيف كان خالد سيف الله المسلول؟

وهذه مداخلة حثت بين نصراني يقال له جرجة، وبين خالد، وإذ كان منها إسلام رجل عرف الحق وإذ قد استفاضت عليه أنوار الحق وحين: خرج جرجة إلى بين الصفين وطلب خالدا، فخرج إليه، فآمن كل واحد منهما صاحبه، فقال جرجة: يا خالد اصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع المسترسل، هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: ففيم سميت سيف الله؟ فقال له: إن الله بعث فينا نبيه - صلى الله عليه وسلم - فكنت فيمن كذبه وقاتله، ثم إن الله هداني فتابعته، فقال: أنت سيف الله، سله الله على المشركين، ودعا لي بالنصر. قال: فأخبرني إلى ما تدعوني. قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب. قال: فما منزلة من الذي يجيبكم ويدخل فيكم؟ قال: منزلتنا واحدة. قال: فهل له مثلكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل؛ لأننا اتبعنا نبينا وهو حي، يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم، وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا، فمن دخل بنية وصدق كان أفضل منا. فقلب جرجة ترسه ومال مع خالد وأسلم، وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم. وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية[٢].

المبحث الواحد والأربعون: خبر المثنى بن حارثة بالعراق

وحين قد تأمر المثنى بن حارثة وكان منه تديد نائب كسرى على العراق يومه هذا للمثنى بن حارثة! والذ ي كانت منه شجاعته وبذله في سبيل الله تعالى مهجته وحين كتب إليه كتابا أوعده وهدده ومن قوله هذا: إنما أنت أحد رجلين: إما باغ، فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب، فأعظم الكاذبين فضيحة عند

---

(١)لسان العرب، ابن منظور: ج ٦ / ١٩٥

(٢)كتاب الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير: ٢٥٨/٢

الله وفي الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما أضررتم إليهم، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير[1].

ومنه كان نصر الله تعالى المبين لجنده الباذلين.

المبحث الثاني والأربعون: إني لأرجو أن أموت يومي هذا

هذا دنو أجل الصديق!

وما لنا وإذ نتباكى يومن هذا؛ ولما كان منه بكاؤنا يوم أن عرفنا دنو أجل نبينا وخليله محمد صلى الله عليه وسلم؟!

وما لنا لا نتعابر، وهذا يوم أضيف إلى يوم كان منه قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: بل الرفيق الأعلى؟!

إن إحساس أبي بكر دنو أجله، وهذه رسالة السماء، إلى أولياء ربهم تعالى، ولعلهم أن ينتهضوا، وأن يعوضوا وأن يستغفروا وأن يتوبوا!

وأن يفرحوا أيضا، ولأنه ذلكم لقاء ربهم تعالى هو خير مما يجمعون!

ولما كان من خبر أن المثنى بن حارثة كان قد أرسل رسوله إلى أبي بكر بالمدينة، يخبره رغبته إمداد جيشه، وبمن تبقى من المرتدين وقد حسنت توبته؛ لأن منهم شجعانا من قتالهم!

وحينها أوصى الصديق إلى عمر الفاروق وصيته، ولما كان منها إنفاذ رغبة المثنى.

([1])المرجع السابق: ٢٥٨/٢

ولعل هذا يذكرنا يوم أن أنفذ أبو بكر الصديق جيش أسامة، وإنما الشي بالشيء يذكر، وما أشبه الليلة بالبارحة!

ولعل الإيصاء بأمر الدين هو أصل الأصول وقاعدة القواعد، وحين كان الناس عند قول ربهم سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٣١].

ومنه تصبيره الناس يوم موته؛ ولأنه كان أسبق بالتصبر يوم وفاة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم كان قال أيضا: يا أيها الناس! أيما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة، فليتعز بمصيبته بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدا من أمتي، لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي[١].

ولما كان منها تصبرهم، وحين موته، ولأنه الصديق، يعرف قدره عند رعيته، ولما كان منها اختيار عمر، ولعله أن يكون وصية له من بيعته يومه هذا!

ولما كان خبر قوله هذا: إني لأرجو أن أموت يومي هذا، فإذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم، فقد رأيتني متوفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله، وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم[٢].

---

(١)صحيح الجامع، الألباني: ٧٨٧٩
(٢)كتاب الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير: ٢/٢٥٩

ومات أبو بكر ليلا، فدفنه عمر، وندب الناس مع المثنى.

وهكذا كانت وفاة هذا الصديق أبو بكر، ثاني اثنين كانا في الغار، وخليله رسول الله محمد صلى الله وسلم، وعن عمر ناهز الستين، ومن مدة خلافة بلغت سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

وهكذا كان سلاحا مضاء، يومه كله؛ ومن بلائه، في ربه تعالى البلاء الحسن العظيم، وحين كان منه حروب الردة، وجمعه قرآن ربه تعالى.

وحين فتح في هذا الزمن القياسي بلاد فارس والروم، ومن قبلها أجزاء عظيمة من الجزيرة العربية تاريخا يحتذى. ولا سيما وأنهم كانوا ذوي قوة وبأس شديد.

وإلا أنه كان قد أظهر هذه البراعة في القتال، وهذه الحكمة في التوجيه، ويكأنه فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، والله تعالى ذو الفضل العظيم.

وهذه صفحات من نور، وقبسات من هدى، وإذ لا زلنا نعيش من هداها، ونستظل من وراف ظلالها وسناها.

فجزاه الله عن الأمة الإسلامية خيرا ورضي الله عنه وأرضاه.

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على هذا النبي محمد.

مراجع البحث

١- صحيح الترمذي، الألباني.

٢- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.

٣- السيرة النبوية، ابن هشام الحميري.

٤- السلسلة الصحيحة، الألباني.

٥- كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة - ط العلمية، ابن الأثير.

٦- سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق.

٧- السيرة النبوية، ابن كثير.

٨- البداية والنهاية، ابن كثير.

٩- صحيح ابن ماجه، الألباني.

١٠- صحيح البخاري.

١١- أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان.

١٢- المحلى، ابن حزم.

١٣- صحيح مسلم.

١٤- السيرة النبوية، ابن كثير.

١٥- السيرة النبوية، أحداث ودلالات، للمؤلف.

١٦- صحيح أبي داود، الألباني.

١٧- الاستيعاب، ابن عبد البر.

١٨- صحيح الجامع، الألباني.

١٩- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
٢٠- فتح الباري، ابن حجر.
٢١- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم.
٢٢- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
٢٣- كنز العمال، المتقي الهندي.
٢٤- السيرة الحلبية، الحلبي.
٢٥- تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط.
٢٦- إعانة الطالبين، البكري الدمياطي.
٢٧- تخريج صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط.
٢٨- السنة لعبد الله بن أحمد.
٢٩- تاريخ الخلفاء، السيوطي.
٣٠- الاستذكار، ابن عبد البر.
٣١- تاريخ الإسلام، الذهبي.
٣٢- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري.
٣٣- الإيمان لابن أبي شيبة، الألباني.
٣٤- معرفة علوم الحديث، الحاكم.
٣٥- مسند الخلفاء الراشدين، الإمام أحمد بن حنبل.
٣٦- الدراية في تخريج أحاديث الهداية، ابن حجر.
٣٧- عمدة القاري شرح صحيح البخاري.

٣٨- عبقرية الصديق، العقاد.

٣٩- مجمع الزوائد، الهيثمي.

٤٠- السرائر، ابن إدريس الحلي.

٤١- المعجم الكبير ، الطبراني.

٤٢- لسان العرب، ابن منظور.

الفهرس

أبو بكر الصديق..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

تمهيد وتقديم..... ١

الفصل الأول: من مولده إلى إسلامه..... ٥

اسمه:..... ٥

نسبه:..... ٥

أمه:..... ٥

موجز الأنباء:..... ٥

صفاته الجسدية:..... ٦

من صفاته:..... ٦

ولماذا الصديق؟..... ٦

شرف النسبة وعلو المقام:..... ٧

الأشناق:..... ٧

سبق إسلامه:..... ٧

إسلام أبي بكر الصديق..... ٨

إيذاء أبي بكر في الله تعالى وصبره فيه..... ١١

مطالبة أبي بكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة..... ١٢

من فراسته..... ١٢
من ورعه..... ١٢
من شجاعته..... ١٣
أشجع الناس أبو بكر رضي!..... ١٣
من بشارته..... ١٦
من رأفته..... ١٧
موقفه يوم الإفك..... ١٧
موقفه يوم الحديبية..... ١٨
الفصل الثاني: من هجرته إلى وفاة النبي صلى الله عله وسلم..... ١٩
وفيه مبحثان:..... ١٩
المبحث الثاني: هجرته مع رسول الله ﷺ إلى يثرب..... ٢١
المبحث الثالث: برهان النبوة وعلامة الرسالة..... ٢٣
فأل حسن:..... ٢٤
المبحث الرابع: من أوصاف ورقة!..... ٢٦
وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر":..... ٢٦
المبحث الخامس: أوصاف نبينا كما قد رآها ورقة!..... ٢٧

١- إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبا ولي علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسبا: ٢٧

٢- يقول ما قيل له:..... ٢٧

3- إلا أنه لا يظلم ولا يظالم:..... ٢٧

المبحث السادس: هجرة أبي بكر الصديق..... ٣٠

1- مراعاة العمل السري:..... ٣١

2- وهذا أيضا من عقيدة الأخذ بالسبب:..... ٣٢

3- مراعاة أوقات الزيارة الشرعية:..... ٣٢

4- جواز الزيارة في غير وقتها لضرورة شرعية:..... ٣٢

5- إيثار أبي بكر:..... ٣٢

6- خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعدله ونصفته:..... ٣٢

7- ثقة أبي بكر في ابنتيه عائشة وأسماء:..... ٣٢

8- موافقة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أبا بكر، على ثقته:..... ٣٢

9- تشوف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليوم الهجرة هذا:..... ٣٣

المبحث السابع: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟!..... ٣٣

المبحث الثامن: السياسة الحكمية في الحيلة الشرعية..... ٣٤

وأما أولاهما:..... ٣٤

وأما ثانيتهما:..... ٣٤
المبحث التاسع: إيثار الأبرار..... ٣٦
المبحث العاشر: شهوده المشاهد..... ٣٩
وقعة بدر أولا..... ٣٩
المبحث الحادي عشر: موقفه من أسارى بدر..... ٤١
المبحث الثاني عشر: ومنه يوم العسرة..... ٤٣
المبحث الثالث عشر: أمير أو مأمور؟..... ٤٤
المبحث الثالث عشر: موقفه يوم موت النبي محمد صلى الله عليه وسلم..... ٤٦
الفصل الثالث..... ٤٩
من خلافته إلى يوم وفاته..... ٤٩
المبحث الأول: الإبانة في عمل الولاية..... ٥٢
فأين أبو بكر؟..... ٥٦
إن أبا بكر رجل رقيق..... ٥٨
المسؤولية الاعتبارية الإدارية..... ٥٩
المبحث الثاني: النضر الأنيق في صحة بيعة أبي بكر الصديق!..... ٦٠
المسألة الأولى: فلا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أنْ يَقُولَ: إنَّما كَانَتْ بَيْعَةُ أبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وتَمَّتْ، ألَا وإنَّهَا قدْ كَانَتْ كَذلكَ، ولَكِنَّ اللَّهَ وقَى شَرَّهَا، وليسَ مِنكُم مَن تُقْطَعُ الأعْنَاقُ إلَيْهِ مِثْلُ أبِي بَكْرٍ..... ٦٠

المسألة الثانية: حكم الاستخلاف..... ٦٨
المسألة الثالثة: فرية الإيصاء لعلي بالخلافة..... ٧٣
المسألة الرابعة: إثبات بيعة علي لأبي بكر!..... ٧٥
الوجه الأول:..... ٧٥
الوجه الثاني:..... ٧٥
الوجه الثالث:..... ٧٥
الوجه الرابع:..... ٧٥
الوجه الخامس:..... ٧٦
الوجه السادس:..... ٧٧
الوجه السابع:..... ٧٧
الوجه الثامن:..... ٧٧
بره بالنبي صلى الله عليه وسلم..... ٧٩
المبحث الثالث: خطبة الولاية..... ٧٩
ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض..... ٨١
المبحث الرابع: لأنفذت جيش أسامة..... ٨١
وَجَلُ أسامة:..... ٨٢
تواضع عمر:..... ٨٢

طلب عزل أسامة:..... ٨٣
المبحث الخامس: السلام عليك أيها الأمير!..... ٨٣
المبحث السادس: قتال المرتدين..... ٨٦
المبحث السابع: مزاعم القوم..... ٩٠
أولا: احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٣]:..... ٩٠
ثانيا:..... ٩١
ثالثا:..... ٩١
موقف الفاروق عمر:..... ٩٢
المبحث الثامن: من أمجاد العسكرية الإسلامية..... ٩٧
والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي:..... ٩٨
أبو بكر يركب وعلي يقود الراحلة!..... ٩٩
المبحث التاسع: مسألة التحريق بالنار..... ١٠٠
المبحث العاشر: تقليد خالد بن الوليد..... ١٠٢
المبحث الحادي عشر: استتابة طيء..... ١٠٣
المبحث الثاني عشر: إن لك رحاء كرحاه، وحديثا لا تنساه..... ١٠٤
من بركات الأولياء:..... ١٠٥

المبحث الثالث عشر: مسألة التحريق بالنار..... ١٠٦
أما الإحراق:..... ١٠٦
المبحث الرابع عشر: معركة بزاخة..... ١٠٧
المبحث الخامس عشر: عمل الشورى..... ١٠٨
المبحث السادس عشر: امرأة تؤلب على سيف الله!..... ١٠٩
المبحث السابع عشر: سجاح بنت الحارث النصرانية..... ١٠٩
المبحث الثامن عشر: قتل مالك بن نويرة..... ١١٠
اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد..... ١١٠
المبحث التاسع عشر: فرية وردها..... ١١١
المبحث العشرون: اجتهاد عمر الفاروق..... ١١١
المبحث الواحد والعشرون: موقعة اليمامة..... ١١٣
علم نبوة ضاف..... ١١٣
المبحث الثالث والعشرون: جمع القرآن الكريم..... ١١٩
المبحث الرابع والعشرون: ردة أهل البحرين وبركة دعاء العلاء بن الحضرمي..... ١٢١
المبحث الخامس والعشرون: ما أثر بركات الأولياء؟..... ١٢٥
المبحث السادس والعشرون: إرسال جيش الفتح إلى العراق..... ١٢٦
غزوة ذات السلاسل..... ١٢٦

التاريخ يعيد نفسه:..... ١٣٢
المبحث السابع والعشرون: وقعة الولجة..... ١٣٣
عمل جهاز المخابرات:..... ١٣٤
وهذا عمل الكمائن!..... ١٣٤
قطع خطوط الإمداد:..... ١٣٤
طرفة يوم الولجة:..... ١٣٥
المبحث الثامن والعشرون: موقعة أليس..... ١٣٥
سببها:..... ١٣٥
تاريخها:..... ١٣٥
شأو دعاء ربنا تعالى:..... ١٣٦
تفضيل الأسر على القتل:..... ١٣٦
المبحث التاسع والعشرون: جواز التخريب لمصلحة راجحة..... ١٣٨
المبحث الثلاثون: علم نبوة ضاف..... ١٤١
المبحث الواحد والثلاثون: معركة ذات العيون..... ١٤٢
المبحث الثاني والثلاثون: فتح عين التمر..... ١٤٤
إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدا:..... ١٤٤
إحفظوا مكانكم فإني حامل:..... ١٤٥

المبحث الثالث والثلاثون: فتح دومة الجندل..... ١٤٦
المبحث الرابع والثلاثون: فتح الحصيد والمضيح..... ١٤٧
المبحث الخامس والثلاثون: أمة الحق ورعيل العدل!..... ١٥١
المبحث السادس والثلاثون: وقعة الفراض..... ١٥٢
المبحث السابع والثلاثون: فتح الشام..... ١٥٥
موقعة اليرموك..... ١٥٥
إني سهم من سهام الإسلام..... ١٥٥
المبحث الثامن والثلاثون: تحفيز القائد..... ١٥٧
المبحث التاسع والثلاثون: أبو بكر يمشي ويزيد يركب!..... ١٥٨
المبحث الأربعون: كيف كان خالد سيف الله المسلول؟..... ١٦١
المبحث الواحد والأربعون: خبر المثنى بن حارثة بالعراق..... ١٦١
المبحث الثاني والأربعون: إني لأرجو أن أموت يومي هذا..... ١٦٢
مراجع البحث..... ١٦٥
الفهرس..... ١٦٨